الكتاب الجميع
٧٣
الفيصل

تسمية الخليج:
قراءة في الأصول

يعقوب يوسف الإبراهيم

2011

تسمية الخليج:

قراءة في الأصول

يعقوب يوسف الإبراهيم

2011

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف الطبعة الأولى الكويت - 2011

هذا الكتاب

هذه مجموعة من المقالات كنت قد نشرتها في جريدة القبس الكويتية، في سلسلة من ثمان حلقات، نشرت خلال شهر يناير من عام 2011 ونظراً لما أحدثه من نقاش علمي بين المثقفين، ولرغبة عدد منهم أن يتم جمع هذه المقالات في كتاب يضاف إلى المكتبة العربية، جاء هذا العمل الذي يقدم قراءة تحليلية في تسمية الخليج.

فقد كثر الكلام وسالت الأقلام، «وقيل ما قيل ان صدقاً وان كذباً». ولكن المتابع الجاد للحدث يجد ان الفجوة غائلة بالمطلق الذي تكتنفه ضبابية تموج بين قارص القول ودفء الأماني، لا تفي بعرض يكشف عن جديد أو يملأ فراغاً. فظل الشأن متأرجحاً بين التأزيم والتسفيه والتبسيط هذراً معاداً مكرراً عارياً من فكر وتدبير، بعيداً عن حكمة أو حل، مؤججاً لفتنة دفينة مسلطة على الرقاب كـ«سيف ديمقليس». ولا أدعي هنا الوقوف على الحل السحري لهذه المعضلة المعقدة، بل

حاولت ان يكون العرض هو الأشمل من دون إطناب، بعيداً قدر الإمكان عن الشوفينية والتخندق، فالإلمام التام بالوقائع سيجعلها محط تأثير لا يخلط بين الرأي والعاطفة، لعله يكشف أموراً أغفلها البعض ويبني جسوراً للحوار والتفاهم بدلاً من التراشق والتلاسن وهو ما نأمله من هذا المسعى.

يعقوب يوسف الإبراهيم

المبحث الأول:

مسميات الخليج قديماً

اسم «فارس» خليط اشوري - اغريقي :

الخليج كان منذ فجر التاريخ محط أنظار ونقطة جذب للغزاة وأصحاب الطموح اللاهثين لتوسيع رقع امبراطورياتهم، بحثاً عن الأرزاق والأسواق. هذا المسطح المائي الذي تبلغ مساحته سبعة وتسعين ألف ميل مربع يمتد من خط طول 48 درجة إلى 60 درجة شرقاً، ومن خط عرض 22 درجة إلى 30 درجة شمالاً، أعماقه القصوى بين 1800 – 50 قامة، وهو أعمق عند الجانب الشرقي منه إلى الجانب الغربي. طوله من مضيق هرمز إلى مصب شط العرب قرب الفاو يبلغ 500 ميل، وعرضه يتفاوت بين 180 – 29 ميلا، على ضفتيه صحراوان.

هواؤه شمال غربي ويعرف بـ«الشمال» وجنوب شرقي وهو ما تعارف عليه محلياً بـ«الكوس»، وهو رطب وخم قد تبلغ نسبته 100%. أطلق عليه السومريون مسمى «شر الهواء» ووجدت في حفريات أور عام 1925 تعويذة أو تميمة تعلق في الرقبه لتطرد ذلك الشر وتوقي منه. اما درجة حرارته في الصيف فإنها تفوق 50 درجة مئوية وفي معظم أيام السنة تكون درجة الحرارة في الظل نحو35 درجة مئوية.

عرفه السومريون وكانت عاصمتهم أور آنذاك تقبع على ساحله، فاطلقوا عليه اسم «البحر الآدنى» خلافاً للبحر الأعلى شمالهم، وهو ما يطلق عليه اليوم البحر الأبيض المتوسط. وسماه الآشوريون «نار مراتو»، أي النهر المر– وكانوا يطلقون اسم النهر على البحر كما يطلق المصريون حاليا اسم البحر على النهر.

في القرن السابع قبل الميلاد بحدود عام 696 ق.م، قام الملك «سركون الأكدي» ببناء أسطول من السفن هاجم به مستوطنات العيلاميين القادميين من أواسط آسيا على السواحل قرب فم الخليج قرب خور موسى، واستطاع نهبها وتدميرها. ويخبرنا التاريخ ان عرب البحرين – المقصود هنا الساحل الشرقي من شبه الجزيرة العربية وليست الجزيرة، الممتد من الكويت حاليا إلى الفجيرة على مشارف عُمان – قد هاجموا مستوطنات على الجانب الشرقي من الخليج في القرن الرابع قبل الميلاد، الذي كان يطلق عليه «مُلخه»MELUKHA. ولا يستبعد ان تكون هناك نشاطات ملاحية في حدوده وربما تعدته إلى الهند. فطرق التوابل البحرية تغور أيامها في أعماق التاريخ. لكنها لم تكن واضحة جلية إلا بعد الحدث الكبير الذي قام به الاسكندر المقدوني 356 – 323 ق.م عند غزوه امبراطورية الاخمينيين وقضائه عليها بعد مقتل داريوس الثالث (داريوس الثالث) في بلخ بقزوين صيف 330 ق.م. لم تكن تلك البلاد تعرف باسم «فارس»، فرجوعا إلى «الأفستا» كتاب زرادشت نرى المسمى هو «ايرانا فيجاه»، أي حظيرة الإيرانيين، وهو ما اشتهرت به ابان حكم الأخمينيين 559 – 330 ق.م، وكان الآشوريون في القرن التاسع قبل الميلاد يطلقون اسم «برسوا» للمناطق الملاصقة لحدودهم الشمالية الشرقية قرب بحيرة ارميا.

أما اليونانيون، وحتى قبل غزوهم وحكم الاسكندر والبطالسة من بعده (330 ـ 256 ق.م) فأسموها «برسيس» PERSIS أي بلاد پارس (لا يوجد في الاحرف العربية حرف « پ » وهي الاحرف المستخدمة

● خريطة الشريف الإدريسي

في الفارسية، فاستعمل حرف ف خطأ ليصبح فارس، والصحيح هو الأول)، فتغلب هذا الاسم على كل البلاد، وما فارس سوى اقليم صغير فيها. ومن ذلك حمل الخليج هذه التسمية اليونانية عند عودة نيارکوس الاكريتي NEARCHUS قائد الاسطول البحري الذي اوكل إليه الاسكندر مهمة اكتشاف حافة العالم ومنابع الشمس بعد عصيان جيشه. ورفضه

مواصلة التقدم، وأخذ قرار العودة، حينما بلغ مشارف جبال الهملايا وعبور نهر السند. فتم الاتفاق على اللقاء في «سوسة» العاصمة الايرانية القديمة الواقعة على مقربة من نهر كارون.

نيارکوس: أول من أطلق «بحر فارس»

كانت رحلة نيارکوس شاقة استمرت خمسة أشهر جاب فيها البحر، وحينما خسر بعض سفنه وبحارته (مرضاً أو غرقاً) قرر العودة شارحاً كل ما لاقاه في كتاب عنوانه «رحلة نيارکوس واكتشاف البحر الارتيري». فعاد شمالا محاذياً الساحل الشرقي حتى مدخل الخليج صوب الجهة الشرقية التي يقع على ضفافها اقليم فارس غير المأهول، فأطلق عليه «بحر فارس»، وكان ظهور هذه التسمية حوالى عام 324 ق.م. ولو كانت الصدفة ان يكون قد ابحر بمحاذاة الساحل الغربي المأهول بكثافة سكانية عربية على طول امتداده لتغيرت التسمية.

وليست هذه المرة الاولى التي يحدث فيها مثل هذا اللغط من قبل اجانب اوروبيين، فقد أطلق الرومان اسم فلسطين على المواقع التي احتلوها عام 63 ق.م. بينما كانت تطلق عليها ومنذ ازمنة غابرة مسميات انقرضت مثل «ارض كنعان» و«جلعاد» و«باشان» و«أدوم» و«موان» و«امور»، اما جزء صغير منه، وهو ما يشكل بعض الشريط الساحلي الجنوبي، كان يحمل اسم فالاستيا PHILISTIA وقد ظهرت هذه المسميات نفسها في كتاب العهد القديم، وكانت بعض الخرائط القديمة تطلق على الكل من الفرات إلى البحر اسم عبران هارا ABRANHARA، ولكن اسم فلسطين

اصبح البديل على الجميع، كما هي الحال في مسمى «بحر فارس «، وكلاهما استنباط أجنبي اوروبي..

وإذا رجعنا إلى التاريخ ومن كتبه علينا ألا نفسره بالمطلق، فمقولة هيرودوتس (484 ـ 425 ق م) «ان النيل هبة مصر».. فهو لم ير غيرها وهذا لا يعني الغاء البلدان التي نبع منها النيل او التي تعيش على حوضه.

وفي تراث الاسلام وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . رضي الله عنه ـ للقرآن الكريم بأنه: «حمّال أوجه» وهو يعني اختلاف الناس في تفسيره وهو الكتاب المنزّل، فما بالك بكتب التاريخ التي ما هي الا صناعة الانسان بيد الانسان، والانسان خطاء كما هو معروف لدى الجميع..

بليني هو أول من سماه بالخليج العربي :

ولكن الحال لم تمنع المؤرخ الروماني پليني (PLINY 23 ـ 79 ق م) الذي زار المنطقة فاطلق عليه في كتابه التاريخ الطبيعي مسمى «الخليج العربي» حيث يقول: «ان خاركس (قرب المحمرة) تقع على الطرف الاقصى من الخليج العربي».

Pliny (The Natural History) Translated by John Bostock, 1855 - VO.LS.6

لم تعن.. التسمية شيئاً آنذاك لكلا الطرفين من سكانه. فالبحر بالنسبة إلى العرب، وعلى الرغم من معيشتهم بجواره منذ ازمنة غابرة، حيث سكنته قبائل عربية قديمة كعبد القيس وتميم وبكر وتغلب، فلم

يعطوه اسما معينا وابقوه «بحراً»، لأنه الوحيد في جهاتهم وهو اسم علم لا يحتاج إلى تعريف، والمعروف لا يعرف، كما قالت العرب وهو ما قاله عمرو بن كلثوم :

ركبنـا البحـر حتـى ضـاق منـا
ووجـه البحـر نمـلأه سـفينـا

ولو كانت ضفـة الخليج الشرقية مأهـولة بسكان من الفـرس، لم يتـوانى العرب في اطلاق المسمى «بحـر الفرس» كما فعلـوا في تسميـة بحـار كانت تفصلهم عن اقوام اخرى كما هو الحال ازاء «بحر الروم» (البحر الابيض المتوسط) و«بحـر الهند» (المحيط الهنـدي) و«بحر القلزم» (البحرالاحمر) وبحر الخزر (بحر قزويـن) ولكن سكنة الجانب المقابل كانوا عربا مثلهم فانتفت الحاجة إلى التسمية. والى ايامنا الاخيرة كان العاملون فيه يطلق عليهم «عيال بحر» ويطلق الربابنة عليه اسم «بحر» كلما قصدوا الخليج.

ولكنهـم ذكـروا المواقـع التي سكنوها كقـول الشـاعر الجـاهلي حمـل بن عبـدالمعنـي العبـدي :

نصحـت لعبـد القيس يـوم قطيفهـا
ومـا خيـر نصـح بعـد لم يـتقبـل
فقـد كـان في أهـل القطيـف فـوارس
حمـاة إذا مـا الحـرب شـدّت بيـدبل

وركبوه سفناً بنوها وهي ما قال فيها الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد في معلقته :

كان حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

وقال في ركوبه أيضاً :

وركوب تعزف الجن به
قبل هذا الجيل من عهد ابد

ووصف اجواءه وانواءه بقوله :

تطرد البرد بحر ساخن
وعكيك القيظ أن جاء بقرْ

وغاصوه بحثاً عن اللؤلؤ كقول الشاعر الجاهلي المسيب بن علس، وهو خال الأعشى «صناجة العرب» :

كجمانه البحري جاء بها
غواصها من لجة البحر

أما الأعشى فجاء بشعره:

كـأنهـا درة زهـراء أخـرجـهـا
غواص دارين يخشى دونها غـرقـاً
ومـارد مـن غـواة الجـن يحـرسهـا
ذو نـيفـة مسـتعـد دونهـا تـرقـا

ودارين موقع معروف على الخليج في المملكة العربية السعودية حالياً.

أمـا أبـو ذويب الهـذلي الذي يصـف ما يبـذله الغـواص في سبيل الحصول عـلى غـالي الـدر :

اجـاز إليهـا لجـة بعـد لجـة
ازل كغـرنيـق الضحـول عمـوجُ
فجـاء بهـا بعـد الكـلال كـأنـه
مـن الايـن محـراس اقـذ سـحيـحُ

وهناك الكثير الوفير من شعر العرب واخبارهم التي وردت، وعلى سبيل المثال «نخبة الدهر في عجائب البحر» للصوفي و«مروج الذهب» للمسعودي. كل ذلك دلائل على رفقة العرب للبحر والتصاقهم به، فظهر منهم الملاحون والبناؤون وغدوا فرسانا للبحر كما هم لليابسة، واضحوا مرهوبي الجانب لا يترددون في الاغارة على من عاداهم. وفي الوقت نفسه لعبوا دوراً كبيراً في ميدان الملاحة التجارية وطرقها الممتدة ما بين الشرق والغرب. فغدت علاقة وثيقة الصلات راسخة الوجدان.

امام كل هذا أن نجد العكس على الجانب الآخر، إذ كان هناك فاصل بيئي ونفسي، ويكاد أن يخلو التاريخ والأدب الفارسي من ذكر البحر ومتعلقاته.

حـواجـز الجغرافيـة :

فالعامل الجوي الذي اجبر الايرانيين على عدم سكن سواحل الخليج هو الطبيعة القاسية الجافة الطاردة، طقس قاسي الانواء وأرض شحيحة الانماء، فلا ماء يسقي بشراً أو زرعاً أو ضرعاً، وإن وجد فهو اجاج. ولما كان حول الساحل مناقع للمياه – خيران – وأراض سبخة جعلت هبوة داخنة متصاعدة تقابلها سلسلة الجبال المطلة عليه، فتنعقد في الجو وتزيده حراً ووخامةً، فالساحل المحاذي للخليج تفصله عن هضبة فارس سلسلة جبال زغروس الممتدة من كرمنشاه شمالا حتى برزقون جنوباً بطول يفوق ألف كيلومتر جعلها حاجزاً صعب المنافذ إلى الداخل، مما أدى إلى عزل السكان عن السواحل، لذا عزف الناس عن استيطانها واطلق عليها «كَرمسير» ومعناها «المكان الحار» بعكس المناطق المرتفعة ذات الجو المعتدل والماء الوفير والزراعة فأسموها «سرد سير» أي المكان البارد، والتي استوطنتها مجموعات بشرية كبيرة وازدهرت فيها المدن والحضارة واشتهرت بمنتوجاتها الزراعية، فأين فواكه البرز وماء قزوين من جدب الساحل وقسوة حرارته، الذي اقتصر سكانه على العرب الذين استقروا به من هجرات خلال أزمنة متفاوتة، وهم من يطلق عليهم «عرب فارس» وامتدت مدنهم على طول الساحل الشرقي من فم الخليج إلى مضيق هرمز.

يذكر القس جوزف بارفت في كتابه «بلاد الرافدين المدهشة» لندن 1920 ص 72: حاول أحد الكتاب الفرس قديماً أن يصف حرارة جو الخليج فجاء كما يلي: «انها حرارة تذيب السيف في غمده، وتحول الأحجار الكريمة التي ترصع مقبض الخنجر إلى فحم. أما الصحراء فإنها مملوءة بالغزلان المشوية».

كان ذلك هو رأيهم في الماضي، وما زالت ثنائية «آب وهفا» أي ماء وهواء لدى الايرانيين يرددونها إلى درجة الهوس.

فارس : أمة يسكنها خوف تاريخي من هول البحر

أما العامل النفسي لهذا الانكفاء فليس اقل اهمية فان الامبراطوريات الفارسية على تعاقبها كانت على الدوام مشغولة بحروبها البرية ولم يعرف عنها الاهتمام بأمور البحر لأسباب عدة، منها: ضيق مساحته وقلة مصادره مقارنة بالبر. والدليل على ذلك ان الفرس لم يركبوا البحر ولا اشتهروا بمعاركه، وكان ذلك من اسباب هزيمتهم امام اليونانيين عام 590 ق.م، حينما قاد دارا الاول جيشاً عرمرماً، اخضع فيه معظم بلدان آسيا الصغرى (تركيا الحالية) ولكنه لما اراد الانتقال إلى اليونان بصحبة اسطول كبير، ما لبث أن اغرقه اليونانيون على قلة عددهم بفضل مهاراتهم البحرية، وهلكت من جراء ذلك اعداد هائلة من جيشه في معركة ماراثون، التي يخلدها في ايامنا هذه السباق المشهور باسمها. وتذكر الروايات التاريخية انه من جراء ذلك أثار غضب دارا الاول وخيبته، ولم تكن له حيلة لكبح حنقه الا ان يأمر جيشه بمعاقبة البحر ضرباً

بالرماح والسيوف والعصي جراء خذلان البحر له! وربما كان ذلك سبباً نفسياً آخر في استمرار قلة الاهتمام بأمور الملاحة والتركيز على تأصيل الماكينة الحربية البرية، واذا ما ارادوا غيرها فان امور البحر وبحارته تناط إلى اقوام اخرى لها معرفة به وهي في عرفها هذا دولة غير بحرية.

ويذكر ويلسون في كتابة «تاريخ الخليج ص 83»: انه لا توجد دولة بحرية مهمة بالمعنى الحديث ان تقبل نفسها التعرض إلى هجمات القراصنة والمغامرين التي يعج بها الخليج لتوقف عمليات النهب والسلب في تلك الاقاليم. وكان الفرس يدركون ذلك ودرءا لاعتداءات السفن المعادية قررالفرس كما يذكر المؤرخون الأوائل اغلاق نهر كارون في وجه الملاحة بوضع احجار ضخمة عبر النهر على هيئة سدود وقد بقيت تلك الاحجار حتى مجيء حملة الاسكندر البحرية التي كان يقودها «نيارکوس» والذي حاول إزالتها بعد عودته من الهند، ولكن الاسكندر توفي قبل ان يتم المشروع، وقد بقيت تلك السدود حتى القرن الثامن الميلادي، ولا يبدو ان الفرس كانوا معرضين بأي تهديد يأتيهم من البحر نتيجة لها وليس لقوة بحرية يملكونها.

ويذكر اللورد كيرزن في كتابه «بلاد فارس» (ص186) :

ان «فارس امة يسكنها خوف تاريخي موروث من هول البحر».

ولم تكن إيران من الناحية الاقتصادية محتاجة في تجارتها إلى البحر، فهي بلاد مترامية الاطراف لا حدود لبرها، وكانت طرق القوافل

البرية هي شريان حياتها التجاري، وطريق الحرير المشهور، الذي يمتد من الصين إلى اوروبا خير رابط لها بالعالم، فانتفت الحاجة تقريبا إلى غيره. وهذا ليس كما هي الحالة بالنسبة إلى الجانب العربي من الخليج، الذي لعب البحر مصدراً رئيسياً لتوريد ارزاقهم، مما ادى إلى التصاقهم به لتأمين ديمومة الحياة.

البحر والمطبخ الفارسي:

كما نلاحظ ايضا من مظاهر الانكفاء الايراني التي تظهر جلية على العادات، ما نراه في المأكل، مثلا اختفاء الاسماك والمأكولات البحرية عن المطبخ الايراني، الذي يزخر باللحوم وانواعها، ومثلا حينما سئل شاه ايران: هل تحب السمك؟ اجاب بأنه مصاب بحساسية تجاهه (كتاب زوجة سفير في إيران). ص58. ويذكر السير جون شاردن الذي اقام في فارس خلال الحكم الصفوي (حكم عباس الثاني الذي حكم مرتين 1666 ثم عاد إلى العرش مرة ثانية باسم سليمان الأول 1668) ونشر بعد وفاته كتاب بعنوان وصف دقيق لبلاد فارس، صدر عام 1727 بلندن، وترجمه في جزأين صلاح صلاح باسم رحلات في بلاد فارس نشرته دار السويدي أبو ظبي 2005, ويذكر عن نفس الموضوع في فصل طعام فارس ص 139 الجزء الثاني المقولة «من المؤكد انهم ليسو مغرمين بالسمك».

ولبعدهم عن البحر نرى قلة معرفة الاغلبية الايرانية بالسباحة والغوص، كما ان النساء الايرانيات اللاتي يتميزن ببياض البشرة

لابتعادهن عن الاماكن الحارة ذات الشمس الحارقة، وهم عموما اقوام يسكنون الجبال والمرتفعات، وفي مجمل الامور وطبيعة حركتها تظل تلك الاماكن أكثر ديناميكية من ذلك الجزء القصي المهجور.

لكل تلك الاسباب وما تقدم منها، جعلت من أمر الاهتمام بالاسم والتسمية جانبا فرعيا لا يستحق الاهتمام، وقد استوى الجانبان في ذلك، وان كانت لأسباب مختلفة.

استمر الامر على ذلك، وورث العرب امبراطورية الساسانيين عام 632 م، فابقوا الامور على مجرياتها، وان اتبع المؤرخون المسلمون ما اختطه اليونانيون قبلهم، كابن رستة وياقوت الحموي والمسعودي واليعقوبي والبلاذري وابن حوقل وآخرين، لكن البعض قد خالفهم، فان خريطة الادريسي مثلا، خلت من مسمى الخليج، كما ظهرت اسماء اخرى في خرائط برتغالية وايطالية وعثمانية، مثل: خليج القطيف وخليج البصرة.. الخ. وإلى وقت متأخر، فأن تسميته في كتاب سياحة نامه إبراهيم بيك (عام 1895 في أواخر حكم ناصر الدين شاه)، بـ «خليج البصرة» ص76 ج1.

ولم تكن للأمر ضرورة، فهو جزء صغير من عالم أكبر، إذ أمتد حكم العرب إلى ما هو أكبر من امبراطورية الاسكندر، وغطى مساحات شاسعة من شبه القارة الهندية وأواسط آسيا، ليبلغوا حدود الصين شرقاً وإلى شمال القارة الافريقية وصحرائها، ثم

إلى اوروبا حتى جنوب فرنسا، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية لا ينافسهم فيها أحد.

فأبقوا دار لقمان على حالها، وظلت تلك الأقاليم تحمل اسماءها كما كانت، لتدل على اممية الامبراطورية واتساعها هيبة وهيمنة وتعددت فيها الأقطار والملل. فإبقاء الاسماء هو تحمل لمسؤولية المحافظة على الاثنية والا فانه كان بالامكان تغييرها كلها ولو إلى حين.

* * *

المبحث الثاني:

العرب والخليج

أغلبية عربية حكمت الساحل الشرقي أكثر من 1400 سنة دون انقطاع

اتسعت الفتوحات وكثرت الهجرات العربية إلى أصقاع مختلفة، وانتشرت مجموعات زادت كثافتها عابرة الخليج من جانبه الغربي إلى الشرقي، وهو ما أطلق عليه كما مر بنا «كَرمسير»، ذلك الساحل الذي يتشابه فيه المناخ والبيئة، فوجدوا أنفسهم في المحيط نفسه الذي اعتادوه. فانتشرت على الساحل الشرقي مدن وموانئ صغيرة ذات صبغة عربية بحتة. وكثر النشاط البحري في هذه المستوطنات منذ القرن السابع الميلادي في خليج تسكن ضفتيه أغلبية عربية لا ينازعها احد في حكمها. واستمر الأمر من دون انقطاع إلى مطلع القرن العشرين، أي أكثر من ألف وأربعمائة سنة، على الرغم من تدخل أجنبي بدأه البرتغاليون في منتصف القرن السادس عشر قابله نوع من المواجهة العثمانية، ومن ثم جاء الهولنديون والفرنسيون، لكن النفوذ البريطاني كان هو الاشمل والأقوى، بدءاً من النصف الثاني للقرن الثامن عشر حتى ستينات القرن العشرين. وكانت بريطانيا تسعى دائما للحفاظ على «الوضع الراهن» STATUS QUO لتحقيق الأمن والاستقرار حفاظاً على مصالحها.

النفوذ البريطاني والعرب :

فأبقى ذلك النفوذ المسميات القديمة التي ضمت إلى امبرطورية لا تغيب عنها الشمس جزءا من التركات التي ورثوها عن كيانات أوروبية كلاسيكية، هي مخلفات حكم الاسكندر وما بعده. وللأسباب نفسها، فإن في سماع تلك الأسماء الأجنبية الغربية ما يعطى هدف ترامي الرقعة

مربوطية التقادم وزيادة في الهيبة، وبقي اسم الخليج الفارسي ليس بإصرار ونفس إيرانيين بل كان ترسيخاً بريطانياً بحتاً لواقع لم تكن هناك رغبة في تغيره، فإيران حينها كانت تعيش حالة من التمزق التي تجعل من هذه الأمور رفاهية لا تستطيع توفيرها، ولا تحتاج إليها أصلا، والموضوع برمته لا يتعدى الوضع الصوري الناجز. ويدعم قولنا هذا ما ذكره الجغرافي والرحالة نيبور في كتابه «رحلات في بلاد العرب» حينما حط في فبراير 1765 في ميناء بوشهر، واصفاً في الجزء المعنون «الامارات العربية المستقلة على سواحل الخليج» ج2 ص 137: «ان جغرافينا قد وقعوا في خطأ كما بينته في مواقع أخرى، بانهم ينسبون جزءاً من بلاد العرب على انه جزء من بلاد فارس وهذا بعيد كل البعد ويعاكس الواقع، فإن سكان العرب على ساحل البحر للإمبراطورية الفارسية من مصب الفرات حتى مصب السند، فالبلدان ولو انها في الجانب الفارسي لكنها مستقلة عن بلاد فارس ويتكلمون نفس اللغة ويمارسون نفس العادات مثل أهل جزيرة العرب». وفي موقع آخر من الكتاب يقول :

«انه من المضحك ان يصور الجغرافيون جزءاً من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس في حين ان هؤلاء الملوك لم يتمكنوا ان يكونوا اسياد البحر في بلادهم لكنهم تحملوا على مضض ان يبقى الساحل ملكاً للعرب».

* * *

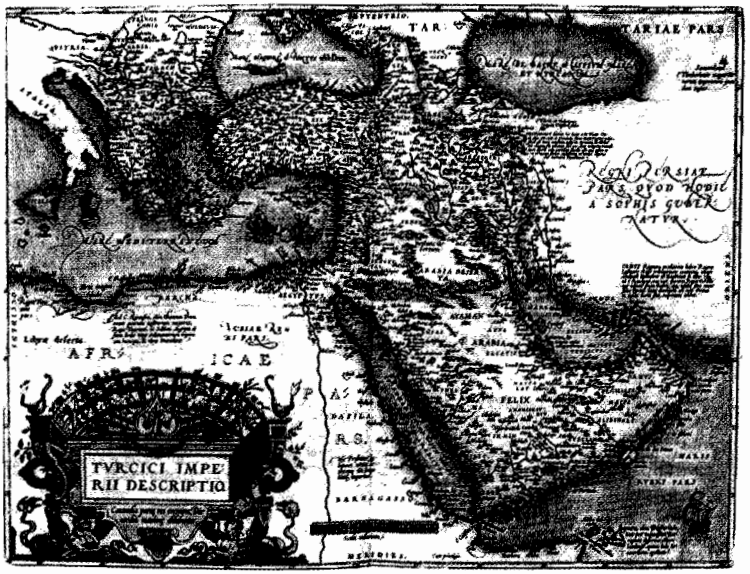

ما ذكر يمثل الخلفية التاريخية وأصولها. لكن ما هي الأسباب والدوافع الآنية التي بدأت آثارها تطفو على سطح الأحداث بإيقاعات لموضوع محسوم وشبه مقبور تتخلله سجالات محمومة مبطنة بالتهديد، وترافقه أحياناً أساليب استحواذية لجأت إلى استخدام القوة لتصبح تلك الحاجة جرثومة خبيثة ظهرت بقوة، بداياتها في عشرينات القرن المنصرم؟

التمرغ في اخفاقات التاريخ :

هذه الإفرازات، كان زادها وقتادها، ولا تزال، حالة تراوح بين النكوص والشلل، ثم الفشل، الذي صاحبه نوع من التمرغ في إخفاقات

التاريخ. في أحسن الظروف ليس أكثر من طقوس وثنية، خاوية من استخلاص الدرس وامكانية سبر أعماق المشكلة للكشف عن الجذور المريضة. بل لكنها في حد ذاتها إنكار لذلك المقتل الذي لم تستطع الشفاء من آثاره النفسية منذ «ضربة سيف سعد بن أبي وقاص التي أطاحت برأس قائد الجيوش رستم أخي يزدجرد» آخر الساسانيين ـ شاهنامه ص 235 ترجمة سمير مالطي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1986. في صبيحة يوم ربيعي من 16هـ/ مارس من عام637 ومعها تم انهيار الملك وتلاشى التاج والصولجان لينتهي يزدجرد نفسه بسكين طحان في طاحونة مهجورة في ريف مقفر قرب بلدة «مرو»، «شاهنامه» ص237 نفس المصدر، ليخلو عرش إيران من أباطرتها إلى يومنا هذا.

* * *

تستغيث الأمم حينما تمر بحالة اضمحلال وضمور وتدهور، فتلجأ إلى ما يرفع معنوياتها ويشحذ همتها مذكرة بماضيها، فتنبش المدفون لتكشف عما كتب وما يروى عن تلك الأيام الخوالي، فتجعله طعاما تزق به عقول الناشئة في عملية غسل دماغ جماعية، راجية بذلك بلوغ الأمل المنشود ولو بعد حين.

الحب الصامد والشخصية الإيرانية :

لنقرأ ما كتبته فرح ديبا في مذكراتها «الحب الصامد» ENDURING LOVE نيويورك 1987، ص 33:

«يذكر جيلي من التلاميذ الصغار في بلدي حينما يكتشفون

تعلقهم بأوطانهم من خلال الصفحات المبهرة لـ «شاهنامه» كتاب الملوك لاعظم شعرائنا فردوسي. لنا نحن الصغار هو الهتاف المستمر لشخصية إيران وعزتها. لقد تعلمت الشغف بفردوسي في المدرسة وكنت اقرأ مع ابن عمي رضا «كتاب الملوك» يخلد ملاحم القصص لمؤسسي إيران والسلالات الاربع، وبعد مرور عشرة قرون مازالت قوة وبلاغة وجمال شعر فردوسي تعيد الحياة اليَّ لابقاء الشخصية الوطنية لايران. ان فردوسي كان قد كتبه عام 1010م، فكتاب الملوك هذا يربط بقوة الشعر الملاحم الاسطورية للابطال المؤسسين الأول للممالك الايرانية».

وتكمل: «قصص فردوسي تشعل النار في مخيلاتنا في المدرسة والبيت. فمن خلال تلك الملاحم التي تحمل الشجاعة والقوة عبر الاخلاق بهذا الكتاب لتعطي الأجيال احترامها لشخصيات عمرها ألفان وخمسمائة سنة، ولايزال الرواة يتجولون من قرية إلى اخرى في انحاء البلاد كما كانوا دائماً يغنون وينشدون عمل فردوسي. وهناك بعد اخر للكتاب هو اضافة إلى العامل السياسي والاخلاقي لثقافة الملوك انفسهم. كما جاء في قوله: «كتبت هذا الكتاب لاعطيه للملوك لانه يعتقد ان مجد إيران يرتبط باستمرار الملكية ولابقائها واحيائها وحفظها من الانحلال والضياع. فان الملوك وحدهم هم الحكام الشرعيون».

ان ما هدفت اليه الشاهبانو المعزولة هو ما دفع والد زوجها رضا عباس قلي، الذي توفي أبوه بعد أربعين يوماً من ولادته في قرية الاشت في الجبل الأسود إقليم بزندران المطل على بحر قزوين عام 1878، من

عائلة تعيش في فقر مدقع من عشائر البافاند ذات الاصول التركمانية.

وقد اعترف ابنه الشاه، وهو في قمة عنفوانه، إلى وزير بلاطه أسدالله علم في جلسة صفاء بمكان ولادة أبيه وتواضع أسرته: «على كل حال من أين جاء آل بهلوي؟ ان أبي كان جندياً بسيطاً قفز من الريف من عائلة غير معروفة في منطقة صفد كوخ» الشاه وانا – اسدالله علم، التدوينات السرية للبلاط الملكي 1969 – 1977، وهو ما أيدته أشرف بهلوي توأم الشاه محمد رضا للكاتب الفرنسي جيرالد فاليرز: «ان أبي جاء من أصل بسيط جداً» كتاب «الامبراطور الشاه» ص 16 – 1975.

لا بد ان نستعين بأهل الدار ذوي الباع والذراع، فالمثل يقول «أهل مكة ادرى بشعابها». ليس هناك ادق من كتاب «تاريخ الشاه غير المعروف» الذي كتبه الصحافي والكاتب الايراني المعروف امير طاهري رئيس تحرير جريدة «كيهان» عام 1991، تحت فصل عنوانه «العملاق» ص 6 – 25 نوجزه للاهمية بتصرف فهو المحفز لما ذكرته فرح ديبا لذلك العسكري الصامت الكتوم الذي لا يثق بأحد، فهو قليل الاختلاط، معتقداً انه الايراني الاصيل ذو الدماء الارية الحالم بمجدها اذا ما دقت ساعتها، فهو الطامح لقيادتها نحو افق جديد ومسلك أريب. ولنفرد الخيط إلى اخره لنصل إلى كمال الصورة، كما سوف نرى :

كان المشهد العام، والقرن التاسع عشر يشرف على الافول لافظاً أنفاسه، يتسارع في خطواته وخطورته منذراً بانتهاء حكم

● ناصر الدين شاه قاجار

سلالـة القاجار التي استمر حكمها من عام 1779 – 1921، حينما جعلوا طهران عاصمتهم عندما نقلوها من شيراز مقـر حكم الزنـد.

اسس حكم القاجاريين التركمانيين من قبائل قزل – باش الذين

ناصبوا نادر شاه الافشاري العداء في آخر أيامه، وبعد موته أصبح آغا محمد الذي لقب بـ «المخيف» والمعروف بقسوته وكرهه للافشاريين، ويعزى ذلك إلى قيام عادل شاه أبن أخ نادر شاه باخصائه وهو صغير السن. فلما اطاح آغا محمد بآخر شاه زندي عام 1796 اعلن نفسه شاها على كل إيران، وألقى القبض على الشاه السابق وحكومته فقطع رؤوسهم وجعلها كومة امام مدخل قصره، ثم نبش قبري نادر شاه وكريم خان الزندي ودفنهما بعتبة قصره في طهران ليدوس عليهما بقدميه كلما دخل القصر، وسحق عاصمتهم شيراز واستباح كرمان، فصبغ البلاد بدموية رهيبة ـ للمزيد من التفاصيل راجع كتاب الاسر الحاكمة في إيران ص 244 وما بعدها- تأليف البروفيسور كلفورد ادموند بوزورث. جامعة ادنبرة – 1996 وكتاب «إيران القاجارية 1800 – 1929» تأليف البروفيسور نكي كيدي، جامعة كاليفورنيا – لوس انجلس – 1999.

التاريخ الحديث :

في مايو 1896 اغتيل ناصر الدين شاه خلال حفل اقيم بيوبيله الذهبي بطهران بيد ميرزا أمين كرماني، وهو شاب متدين متطرف، واتهم بتدبير العملية جمال الدين الافغاني ومنْ ورائه السلطان عبدالحميد. وقد تولى ناصر شاه الحكم وعمره 18 سنة، أيامه اتسمت باحتلال جزء من افغانستان وتدخل الانكليز وقصفهم لميناء بوشهر وبعض المدن الواقعة على الخليج، ثم رسم الحدود بين إيران وافغانستان وبلوشستان عام 1893، وكان مجمل حكمه قد استمر 50 عاماً.

وعند تولي أبنه مظفر شاه الحكم ظهرت في البلاد حركة وطنية تطالب بالدستور والانتخاب، وقد أيدها رجال الدين، وبلغت تلك المطالبة أوجها في ديسمبر 1905. وفي 7 أكتوبر 1906 افتتح المجلس النيابي وتم وضع الدستور في 30 ديسمبر 1906. في بداية عام 1907 توفي مظفر شاه وجاء أبنه محمد علي، الذي لم يستمر حكمه أكثر من عامين قضاهما في محاولات لحل المجلس والرجوع إلى الوضع السابق.

في 31 أغسطس اتفقت بريطانيا وروسيا على تقسيم إيران إلى

ثلاثة اقاليم تجارية، يكون الاقليم الشمالي الأكبر لمصلحة روسيا. ووقعت على أثرها اتفاقية بينها وبين إيران، والجنوب الشرقي، الذي ظهر فيه النفط، إلى بريطانيا تفصلهما منطقة وسطى عازلة. في مايو 1908 بدأت أول بئر للنفط في مسجد سليمان بالانتاج. في يونيو 1908 هاجمت فرقة القوزاق (أسسها ناصر الدين شاه بالتعاون مع روسية القيصرية لحمايو عرشه) بقيادة ضباطها الروس المجلس وقذفته بالقنابل مما أدى إلى تحطمه كلية، محدثة خسائر بشرية. وكانت الاسباب هي خلافات عميقة بين اعضائه وبين الشاه الموالي لروسيا فانتهى فعلياً، ولكن ذلك أدى إلى ردة فعل شعبية قوية واستمرار حالة التأزيم، حتى تم عزل الشاه محمد علي في يوليو 1909 فالتجأ إلى الممثلية الروسية، ومنها هرب إلى روسيا، فتم تعيين أبنه القاصر أحمد ميرزا وكان عمره 11 سنة تحت وصاية عمه ناصر الملك.

حاولت الحركة الوطنية تثبيت مكاسبها بإعادة المجلس وتعبئة جهودها للتخلص من النفوذ الاجنبي، لكن شرارة الحرب العالمية الأولى انطلقت فدخلت القوات الروسية طهران عام 1914 وحل المجلس مرة أخرى وحيدت الحكومة. وفي نوفمبر 1914 اعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية. وفي مضمار مخطط سيطرتها على البصرة الذي تم في 17 منه، احتلت بريطانيا أيضاً جنوب شرقي إيران لتحافظ على مصالحها النفطية فيها.

في اكتوبر 1917 قامت الثورة البلشفية في روسيا وانتهى

الحكم القيصري فانسحبت بعض قواته من شمال إيران، فأحدث الفراغ دوراً أكبر لبريطانيا في تدبير أمور إيران.

لكن هذا لم يمنع روسيا، بعد ان استقر الأمر للشيوعيين، من رجوع قواتهم مرة اخرى إلى شمال إيران في يونيو عام 1920 واعلنوها منطقة محتلة. فرأت بريطانيا ان من مصلحتها التراجع إلى مناطق النفط، مما ادى إلى حدوث فراغ في طهران. في اوائل عام 1921 تم توافق بين حركة وطنية يدعمها بعض رجال الدين، تزعمها السيد ضياء الدين طبطبائي، بالتخطيط لانقلاب عسكري أبيض بقيادة رضا خان الذي يرأس فرقة القوزاق الإيرانية بعد ان تخلص من قيادتها الروسية ليدخل طهران في 21 فبراير من السنة نفسها ليتولى طبطبائي رئاسة الوزراء ورضا خان وزارة الدفاع وقيادة الجيش. لكن طبطبائي ما لبث ان استقال بعد ثلاثة اشهر وغادر إيران ليؤول الأمر كله إلى رضا خان ليصبح رئيساً للوزراء عام 1923. وفي فبراير 1925 اعلن المجلس تنصيبه رئيساً للوزراء وقائداً أعلى للجيش طيلة حياته. وفي نهاية اكتوبر من السنة إياها أعلن المجلس عزل أحمد شاه وانهاء حكم السلالة القاجارية ليصبح رضا خان الحاكم الفعلي ولكن ذلك لم يكن كافياً للطموح الذي كان يبيته فهو يرنو إلى تأسيس سلالة لحكم إيران..

تأثير الفلكلور على العامة :

وهنا نرجع إلى ما ذكرته فرح ديبا عن طفولتها، معتمدة على

ما نادى به فردوسي وذكرناه سابقاً ونعيده «ان مجد إيران يرتبط باستمرار الملكية وابقائها واحيائها وحفظها من الانحلال والضياع، فان الملوك وحدهم هم الحكام الشرعيون»، هذا الاستمرار للافكار التي رسخها رضا شاه الذي تأثر بشاهنامه فنبش تاريخ مؤلفها المهمل وجعل منه اجندة لتعليم النشء الجديد. وسندي في ذلك يرجع إلى متخصص في هذا المجال ومحايد لا ينتمي إلى طرف هو استاذ الادب الفارسي في جامعة ادنبره باسكتلندا ل. بي. ايلويل – سيتون، الذي ذكر في بحث احتواه كتاب إيران والاسلام - منشورات جامعة ادنبره عام 1971، تحت عنوان «تأثير القصص الفلكلورية على عامة الايرانيين» (ص245 – 254) فيقول في مجمله: «ان الانتاج الأدبي الفارسي عموماً للفترة الاسلامية يرجع إلى القرن التاسع الميلادي، وكان الأكثر شهرة هو كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع، وهو مترجم من اسطورة «بانجاتانتر» الهندية، ثم «مرزبان نامه» و«سندباد نامه» و«توتي نامه» و«باختيار نامه»، وتبعها بعد ذلك في القرن العاشر الميلادي «شاهنامه» فردوسي، وهي اساطير فارسية تاريخية كتبت شعرا. وفي القرن الثاني عشر الف نظامي «ليلى والمجنون»، و«خسرو وشيرين»، ثم «اسكندرنامه». وجاء كتاب «كولستان» لسعدي في القرن الثالث عشر، ثم من الشعر الصوفي لجلال الدين الرومي كتاب «مثنوي». في القرن الخامس عشر عاد انتشار وشهرة «كليلة ودمنة» مرة اخرى ووصلت إلى قمة التذوق اللغوي بالصورة التي صاغها حسين فيض كاشفي، وكذلك كتابه «أنوار السهيل». ولا نستطيع الاضافة إلى الادب العامي وفرض أي تأثير جديد بعد القرنين الثالث عشر والرابع عشر. اما بالنسبة إلى الكتّاب الحديثين

ولاجل المقارنة، فنجد ان التأثير كان اوروبياً خلال القرن التاسع عشر، خصوصاً بعد وصول آلات الطباعة الحديثة (1808 – 1854)، فظهر كتاب «برشان» لشاعر البلاط كائني وهو على نمط كتاب «كولستان» لسعدي، بالاضافة إلى ترجمات اجنبية للكتاب الفرنسيين، مثل موليير ودوما ويوليوس فيرن وبرنادان دي سان بيير وفيكتور هيجو.

اما الاتجاه في بداية القرن العشرين وخلال الحركة الدستورية فقد كان لاذكاء الروح الوطنية وذلك بالرجوع إلى القصص التاريخية التي تمجد عروش امبراطورية الاخمينيين في القرن السادس قبل الميلاد او غزو الهند من قبل نادر شاه في القرن الثامن عشر الميلادي.

وظهر من الكتاب سعانتي زاده كرماني ومحمد باقر كسروي وحسن بديع والشيخ موسى ناصري، وكان الانتاج في نسبته أكثر شعراً منه نثراً، واشتهر منهم الشاعر عارف قزويني الذي لقب بـ«الكمان الفارسية»، وكانت قصائده وطنية جماهيرية، والشاعر عاشقي صاحب اوبريت «راستكاز ايران» أي «بعث إ يران»، وفيها يظهر تعليقات الملوك والابطال القوميين القدماء على الوضع الحاضر. ثم محمد علي جمالي زاده وكتابه «يكي بد يكي نابد» عام 1921، والذي أثار ضجة كبيرة، وهو مجموعة قصص قصيرة، وصادق هدايت في كتابه «نرانج ستان»، وكانت كراهيته للعرب تصل إلى مرتبة الوسواس، فيما يعتقده بخصوص: «التأثير المهلك والمؤذي للفتح العربي الاسلامي لايران في القرن السابع الميلادي»، وكذلك كتابه «برفين (بروين) بنت الساسان» عام 1930.

وحينما اتقن هدايت البهلوية اخذ يترجم عنها إلى الفارسية مجموعة من الكتب التقليدية للاساطير التاريخية، كما اشتهر الشاعر المزندراني نعمة يوشنج بمثل هذا النهج الذي كانت المرحلة تتأجج بانتظاره.

المبحث الثالث:

«شاهنامة»

نتاج تفكير مأزوم ومفرط في الكراهية

كان هـذا الاستطراد ضرورياً لربـط مفاصل الموضـوع لتنجـلي الصـورة الكاملة للـدور الذي لعبـه رضا خان، ومـدى تأثره بإسقاطـات تلك الفترة، وتنفيذها حينما دانت الأمـور لـه واستلم مقاليد الحكم لا ينازعـه في السلطة أحـد، فسارع بنشر آثار فردوسي، بدءاً في البحث عن قبره ببلدة طوس التي تبعد عن مشهد بخراسان حـوالي 25 كلم، وبنى له ضريحاً فخماً حضر افتتاحه شخصياً وأقـام نـدوة عالميـة في طهران في 3 أكتوبر عـام 1934 أمتدت أكثر من اسبوعين، وأقـام نـدوة عالميـة في طهران بمناسبة الفية ميلاده. كما اطلق اسمه على أهم شوارع

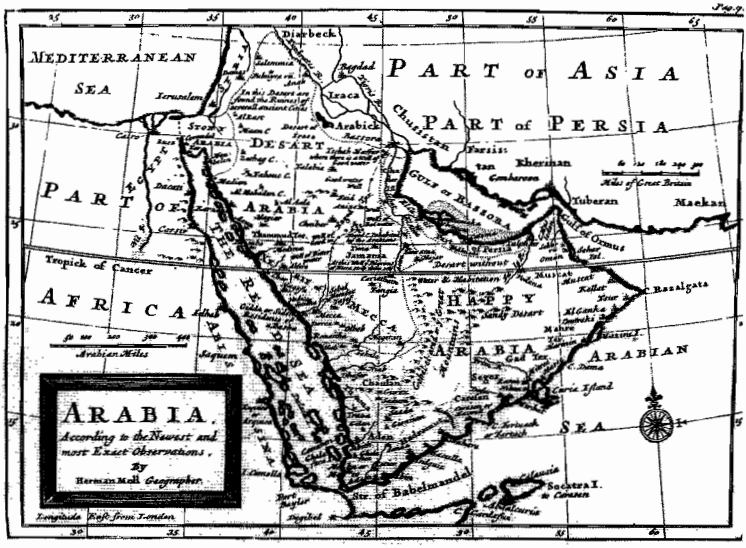

طهران الرئيسية وأقام في وسطه تمثالاً كبيراً له.

وهذا عمل غير مسبوق في تاريخ إيران التي لم يعرف عن حكامها اهتمامهم بمآثر الشعراء ويذكر عن السفير البريطاني السير مورتيمور دوراند أنه طلب مقابلة أحمد شاه القاجاري ليبدي له اعجابه الشخصي بشعر عمر الخيام وانتشاره في بريطانيا بل وكل العالم، ويطلب منه الاعتناء بقبره وترميمه. فكان جواب الشاه بعدم الاكتراث، بل قال له معقباً: «إن في بلاد فارس الكثير من الشعراء ولكنهم لا يستحقون الاشادة، وأنه (أي الشاه) ينظم الشعر أحسن من عمر الخيام».

كان فردوسي قد ولد عام 940 ميلادية/ 329 هجرية وتوفي

عام 1020م/411هـ. وكان ابوه من الدهاقين أصحاب الأراضي، ألتحق بخدمة السلطان محمود الغزنوي « فاتح عموم الهند « (967-1030) امتدت مملكته تمتد من قزوين حتى شرق دلهي في الهند ومعها كجرات الواقعة على بحر العرب تدين له، حكم من عام 998 – 1030. ويذكر المؤرخ الفارسي محمد بن قاسم فيرشتا المولود في استرباد قرب قزوين عام 1570 في كتابه «بروز قوة الاسلام في بلاد الهند» الذي كتبه بالفارسية وترجمه الكولونيل جون بيكز عام 1829 ج1 ص 89 – 90 «ان السلطان محمود كان ملكاً أفاض السعادة على العالم، وعكس المجد على دين الاسلام. ولا يوجد ملك جمع العلماء وأحسن وفادتهم مثله، وكان جيشه القوي الذي خلف مجدا اثيلا» فأضحت «غزنة» عاصمة ملكه الواقعة في بلاد الافغان قرب كابل. والتي اشتهرت في زمانه باستقطاب العلماء والشعراء ومنهم العالم البيروني والشاعر أبو نصر أحمد بن منصور الطوسي صاحب ملحمة «كشتاسب نامه» و«فرهانك اسدي» وهو أستاذ فردوسي. وحينما كلف السلطان محمود أن يقوم الطوسي بكتابة «شاهنامه» اعتذر الشاعر عن هذا العمل الكبير لكبر سنه واعتلال صحته، علماً بأن السلطان كان قد وعد بأن ينقده قطعة ذهبية عن كل بيت شعر. فأوكل فردوسي القيام بالعمل تحت اشرافه. أن فردوسي حينما وصل إلى النهاية لم يستطع اكمال الكتاب وتوسل إلى الطوسي بمساعدته وأنه هو الذي أكمل الجزء الأخير وكان عدد الأبيات قد فاق أربعة آلاف بيت.

ولم تعرف عنه أعمال أخرى غير شاهنامه التي تحتوي على

سيرة خمسين ملكاً بينهم ثلاث ملكات. بدأ بكتابتها كما أشرنا في سن الاربعين واستغرقت ثلاثين عاماً، كتبها بالبهلوية والفارسية، وهي تسجيل شعري في مجموعه يبلغ خمسين ألف بيت من الرباعيات، ولم يستعمل أو يستعن فيه بلغة قرآنية أو اشادة اسلامية على الرغم من كونه من اتباع الاسلام، ولم يستعمل فيه التقويم الاسلامي ككتّاب التاريخ في فترته كالطبري والمسعودي وغيرهما الكثير، بل تجاهل كل ما يمت إلى الاسلام. وهذا دليل على ضعف ايمانه، ويمكننا اعتبار شعره بداية الهجمة على العرب معتقداً وسياسة وثقافة. وهو ما يثبته قوله مثلاً عن حالة ايران: «العقيدة هدمت والملك نحر كالكلب. اخذوا الحكم من الاكاسرة ليس بالشجاعة ولكن بالخديعة وبها استولوا عليه وبالقوة اخذوا زوجات الرجال والغنائم والبساتين. فتصور البشاعة التي حملها هؤلاء الأوغاد إلى العالم حيث لا يوجد لها مثيل. هؤلاء العرب العراة جعلوا عالمنا يغادر وكل ما اراه هو نماذج من الفاقة».

ومن يقرأ شاهنامه يجد فيها اضافة إلى امثال ما ذكرنا، اساطير وخيالا لظواهر تتعدى اللامعقول وتناقضات وقصصا مزج فيها الحقائق بالأكاذيب والحيوانات بالكائنات الخرافية كالالهة والمردة والشياطين وقصص الغرام والزواج والانتقام، ودفن الاسكندر بتابوت مملوء بالعسل ووضع زمن قيصر قبله، علماً بان اليونانيين جاؤوا قبل الرومان، وسآتي لاحقاً على وصف ما كتبه عن الاسكندر والفرق على ما اجمعت عليه كتب التاريخ لنضع امام القارئ صورة واضحة لضيق الافق وقصور المقدرة وتعرية هذه الشخصية من الهالة التي يضفيها عليه

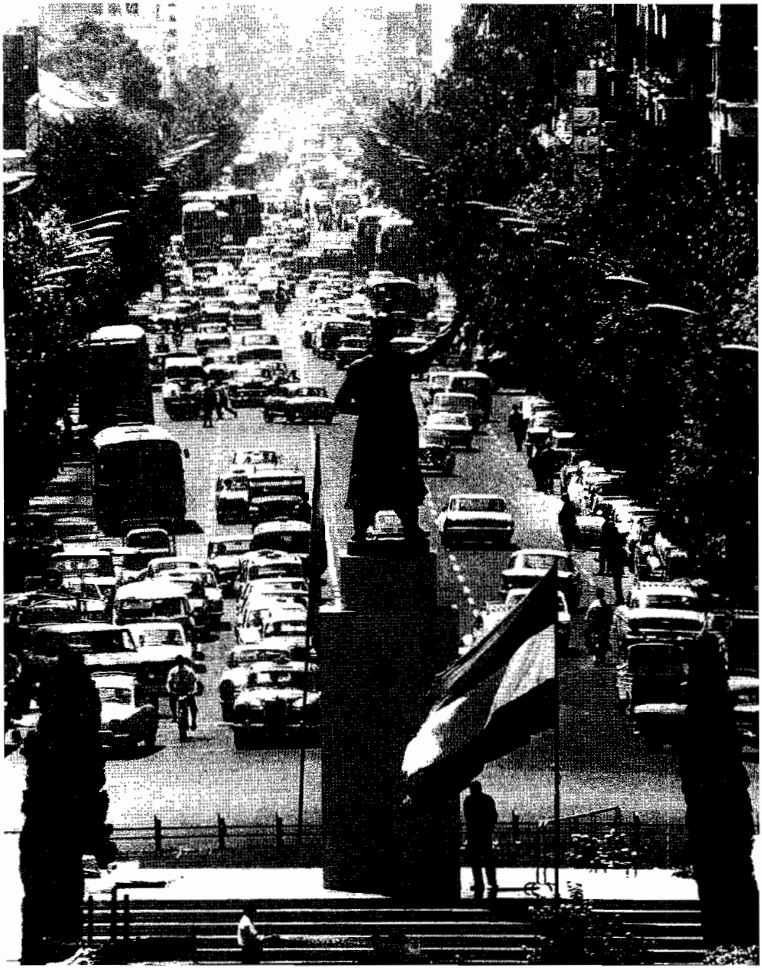

● تمثال فردوسي في ميدان بوسط طهران

الايرانيون ومن تأثر بهم، وهي في المجمل نتاج تفكير منزو ومأزوم زادته المبالغة المفرطة بالكره التي اختلطت بالاساطير الغابرة السحيقة معتمداً على ذاكرة متعبة لا تفرق بين الرأي والذنب. فهو بعمله مثل كيسان

الكاتب كما وصفه الجاحظ: «الذي يكتب غير ما يسمع ويقول غير ما يكتب ويستملي غير ما يقرأ ويملي غير ما يستملي».

وما هو جدير بالذكر ذلك الجزء الذي كتبه في وصف رسالة رستم إلى سعد بن ابي وقاص (رضي الله عنه) والذي يحقر فيه العرب على وضاعة اصلهم ودناءة معيشتهم ورث ثيابهم، ويحذرهم من نيل القصاص متباهياً بغنى الفرس وملوكهم وسيطرتهم على سائر الأمم. فيقول بالفارسية:

«زشـــير شترخـــوردن وسـوسـمـار
عـرب رابـجـائـي رسـيـداسـت كـار
كـــه تـــاج كـيـــان راكـنـــد آرزو
تـفـوبـاد بـر جـرخ كـردون تـفـو»

وترجمتها إلى العربية:

«بلغ الأمر بالعرب بعد شرب حليب النوق واكل الضباب، انهم صاروا يتمنون تاج كسرى، الا تبا لك أيها الفلك الدوار وسحقاً».

(شاهنامة حكيم أبو القاسم فردوسي، مؤسسة جاب انتشارات أمير كبير بهار، 1341، ص 520). ينتقد فردوسي العرب وشرب حليب الابل لكنه يذكر أن ساسان بن بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب جاء

إلى اصطخر ليرعى الابل عند حاكمها بابك الذي زوجه ابنته فأنجبت اردشير بن بابكان، وهو مؤسس سلالة الساسانية. «شاهنامه ملحمة الفرس الكبرى» – دار الملايين، ص 133. ترجمة سمير مالطي.

وفردوسي وان كان مسلما، فإن خطابه انفصل وشط بعيدا وخالف روح الاسلام واصوله التي تقول: «لا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» والتي تركز على العمل وبناء الشخصية الاسلامية ودعوة إلى التواد مخافة تلاشي الامة ومحوها والسير عميانا نحو رواسب عفى عليها الدهر.

ويقول في النهاية:

«تعبت كثيراً في تلك السنوات الثلاثين فاحييت العجم بهذه الفارسية. وصلت الآن إلى نهاية هذا التاريخ العظيم، وسوف تتكلم كل البلاد عني ولن يموت ذكري، لاني بذرت بذوراً لحفظ اسمي وسمعتي من غياب القبر. والرجال العقلاء سوف يعلنون ذلك ويبقون بعد رحيلي شهرتي».

ويختم بقوله:

«كتب في شهر سبندورماز يوم ارد اربعمائة سنة مرت بعد هجرة النبي».

ان فردوسي يفتقد عنصر الحساسية تجاه مشاعر العرب وهو

أمر مفهوم، لانه لا فرق عنده لاهانتهم لمصلحة عرقه، لكن من ينشر هذه العداوة من العرب فهو حتما جاهل العرف بمكنونها ومحتواها. لكن غرام البعض بسماع العناوين الرنانة من دون تفحص في دلالاتها يجعله عرضة لتمرير وتدفق مثل هذه السموم بكل حماس وانبهار. ها هي دار الكتب المصرية تطبع نسخاً تذكارية منها احتفالا بعيد 145 سنة على تأسيسها.

عاش فردوسي في فترة انحطاط الدولة العباسية وتولي البويهيين الاتراك ببغداد (الذين اعتنقوا المذهب الشيعي في بدايته) مقاليد الحكم بين عهدي الخليفة العباسي المتقي بالله وهو الخليفة الواحد والعشرون 940م وبين الخليفة القادر بالله وهو الخليفة الخامس والعشرون 1031م وخلالها بدأ كتابة شاهنامه.

وتقول الروايات إن السلطان الذي وعد بأن ينقد قطعة ذهب عن كل بيت شعر فيها، لم ينفذ الوعد عند اتمام الخمسين ألف بيت، فأرسل قطعة من الفضة عن كل بيت وكانت خيبة فردوسي كبيرة في ذلك، جعلته يعيدها رافضاً رغم عوزه. لكن السلطان بعد برهة من التفكير قرر الذهاب بنفسه إلى بلدة فردوسي (طوس) فكان لقاء متأخر حين وصل موكب السلطان أبواب البلدة حتى لقيه مجموعة من المشيعين يحملون نعش فردوسي. ولم يترك فردوسي هذا الموقف من دون تسجيل، فكتب في نهاية الكتاب: «هي وعود لم تنفذ وكل ما حصلت منهم هما التهاني والشكر حتى انفجرت مرارتي منهما، وبقي الكيس الذي خبأوا فيه المال

● وصف العرب في صفحة من ديوان الفردوس

مربوطا واصيب قلبي الأبيض بداء من بخلهم. اما الفضل فيرجع إلى علي ديلمي لعونه وكذلك للرجل الفاضل حسين قتياب الذي ساعدني بالمأكل والملبس، وامدني بالرغبة في العمل ولم اكن في حاجة إلى شيء لدفع ضرائبي، وكنت مرتاحا في لحافي». (ترجمة الشاهنامة وتعليقاتها ديك ديفيز منشورات فايكنغز نيويورك 2006).

«بيبلوغرافية الأخطاء عند «فردوسي»..واختلاط المادة التاريخية وضياعها بالأسطورة في عمل واحد»

الملحمة هي القصيدة القصصية الطويلة التي تسجل الأعمال البطوليـة التي وردت عن بعض الشخصيات الحقيقيـة أو الخياليـة

حيث تمتزج فيها أفعال البشر وتصرفات الكائنات الخارقة الإعجاز كالآلهة والمردة والشياطين والوحوش الخرافية المهولة ممزوجة بقوة كونية وظواهر خارقة للطبيعة. تأتي كعامل مساعد يضفي على الصورة خلفية اللامعقول في معظم الأحيان وتعتبر أسطورة «جلجامش» السومرية هي الأقدم في الأدب النسائي تتبعها الأليادة اليونانية والمهابراتا والايرانا الهندية.

ولكن من يقرأ في «شاهنامه» يجد ما ينطبق عليه قول المتنبي:

فقر الجهول بلا عقل إلى أدبٍ
فقر الحمار بلا رأس إلى الرسن

خاصة بالنسبة إلى حديثه عن الاسكندر الذي أخذناه نموذجاً لمقارنة الواقع.

الإسكندر في شاهنامة «فردوسي»

يبتدئ في فصل الملوك الاربعة بعد موت كشتاب الذي حكم مائة وعشرين سنة وسلم الحكم قبل مماته إلى حفيده بهمن الذي سلم الملك إلى ابنته هُماي بعد ان حكم ستين سنة. جهر ازاد، بعد ان حبلت منه وعن وليده بشرته ولما جاءها المخاض ولدت صبياً قالت انه مات ولما بلغ وليدها ثمانية اشهر وضعته في علبة مملوءة بالجواهر وشدت على عضوه جوهرة لها قيمة ثم امرت فألقي في الفرات حتى وجده قصار كان يغسل الثياب على حافة النهر فأخذه فرحاً، لأن له ابنا مات

طفلاً وانتقل مع زوجته ولقيطه إلى بلدة اخرى واطلق على الطفل اسم درآب اي الماء الجاري، نشأ وعن مزاولة ابيه تمنع فتعلم الدين والفروسية ودخل في عسكر الملكة هُماي (امه الاصلية) فلفت انتباهها في حربهم ضد الروم (اليونانيين) اختبا دراب (دهراب) في بيت خرب ولكن قائده سمع هاتفاً يأمر البيت بعدم الانقضاض لان تحته ملكا كبيرا فتعجب واستدعى دراب وما ان خرج حتى سقط البيت فسأله القائد عن اصله ومولده فاحضر القصار وزوجته والجواهر، وعند انتصارهم على الروم اخبر القائد الملكة هُماي بشأن دراب، ومع الجواهر فعرفته بانه ولدها وفرحت به ثم نصبته ملكاً وبنى مدينة اسماها دراب وبنى بيت نار (معبد) وقاتل رجلا من العرب خرج اليه بمائة الف فارس فهزمه واطاعه كل ملوك العرب ثم سار إلى بلاد الروم فقابله ملكها قيلقوس بجيش عظيم ولكن النصر كان للايرانين. وقبل الروم السلام وزوج قيلقوس ابنته ناهيد إلى دراب. وفي يوما كانت مضطجعه مع زوجها فتنفست فشم منها فشم منها رائحه كريهه فنفرت نفسها منها وارجعها إلى ابوها. وكانت حاملة فولدت صبياً اسمته الاسكندر تيمناً بالدواء الذي شفاها من الرائحة الكريهه فنسب الوليد إلى جده وجعله ولي عهده معلناً انه ابنه. توفى دراب بعد حكم دام اثنى عشر سنه واستلم الحكم من بعده ابنه دارا (داريوس الثالث).

توفى قيلقوس فجلس الاسكندر مكانه فجمع جنده وتوجه إلى إيران عن طريق مصر ثم رحل وخيم على الفرات، وعلى الجانب الآخر في اصطخر (بيرسيوبيلس). وتقابل الجيشان وهزم دارا ثلاث مرت

فهرب إلى كرمـــان، فكتب إلى الاسكندر معلنـــاً الخضوع والاستسلام. ولكن دارا غير رايه وقال:- «أصعب من القتـــل عندي ان اشد وسطي في خدمـــة الرومي». فهاجمه الاسكندر وانتصر عليه ففر فقتلـه على الطريق اثنـــين من اخلص رجاله، ولكن الاسكندر لحقـــه قبل ان يمـــوت فاوصاه دارا بمماملك إيران وسأله ان يتزوج ابنته روشينك لعله يرزق ولداً يجدد اسم اسفنديار ويزين بدين زرادشت ويحافظ على خدمة النيران واقامة مراسم النوروز والمهرجـان، فوعده الاسكندر بتنفيذ وصيته وانتقم من قاتليـه.

أصبح الاسكندر ملك الروم ملكاً على إيران وتزوج روشينك وبنى مرو وسمرقند وقصد ملك الهند. وجمع الاسكندر الجيوش واكمل طريقه إلى بيت الله الحرام متوقفاً في القادسية. واستقبله نصر ابن قتيب فلاقاه الاسكندر بالترحيب وسأله عن حاكم المدينة فاجاب بأنه خزاعه وان الحكم هو لآل اسماعيل وطاف حول الكعبة واهباً الأموال ومنها إلى جده ثم إلى مصر ومنها إلى الاندلس ومن الاندلس إلى اقطار العالم متنقلاً فوصل أرض البراهيمه ثم انتقل إلى بحر ظهرت على جوانبه خنازير وافاعي وعقارب وسباع. وانتقل لقتال ثعبان على قمة جبل ياكل خمس ثيران كل يوم، ومن الجبال إلى هروم سكانها بنات ومنها إلى أرض الجنات. وتقدم الاسكندر وحيداً لرؤية اسرافيل عليه السلام وتلك الظلمات إلى المشرق وجبل الازوردي ووصل إلى بلاد السند ثم نيمروز وبعدها اليمن إلى ان وصل بابل ليلة مولد اعجب الخلائق، فاهتم واقتم ومرض وكتب رساله إلى أمه اوصها بزوجته روشينك وأبنه ملك الهند

كيد ثم مات ودفن كما طلب بتابوت مملوء بالعسل بعد ان غسل بماء الورد وغمر بالكافور ودفن بتراب الاسكندرية وودعه ارسطاليس وانتهى عهده بعد حكم أربعة عشر سنة.

الإسكندر الأكبر 356 ق.م - 323 ق. م
كما أجمع عليه معظم المؤرخين

ولد في بيلا عاصمة مقدونيا ابن الملك فليب الثاني ملك مقدونيا الذي اغتيل عام 336 ق. م وكان عمره 46 سنة وهو يحضّر إلى حملة لغرو إمبراطورية فارس. وكان عمر الاسكندر حينها 20 سنة أعده أبوه خلالها للتعليم على يد الفيلسوف أرسطوطاليس، وكان المعلم الأول في زمانه بدأ حملته ضد الفرس عام 334 ق. م. وكان قوام جيشه 135 ألف مقاتل. وكانت أكبر معاركة ضد الفرس في اسوس في جنوب تركيا حالياً، وتقدم جنوباً حتى وصل إلى صور، حينها عرض عليه داريوس الثالث نصف مملكته إذا ما أوقف القتال، وكان رأي أحد قواده وأقرب أصدقائه (بارمنيو) نحو هذا العرض الجيد: «لو كنت أنا الاسكندر لقبلت. فأجاب الاسكندر: ولو كنت أنا بارمنيو لقبلت أيضاً». ثم تقدم بجيشه نحو غزة ثم مصر التي استسلمت بدون حرب وكان عمره 24 سنة، فتوج نفسه ملكاً فرعونياً ولبس تاج الفراعنة، وهو رأس ثور بقرون فأطلق عليه لقب الاسكندر ذو القرنين وبنى الاسكندرية. ثم توجه إلى فارس فكانت معركة اربيلا عام 331 ق. م، بعدها قاد جيشه إلى بابل ثم عاصمتي فارس سوس وبيرسيبوليس، فهرب داريوس منها وحاول الاسكندر تعقبه إلا أنه قتل من قبل مرافقيه عام 330 ق.م وبعد ثلاث

سنوات أصبحت كل الإمبراطورية الفارسية جزءاً من ملكه الممتد من نهر السند وسفوح همالايا إلى اليونان، وحاول التوغل في الهند إلا أن جيشه تمرد عليه مطالباً بالعودة رغم معارضته فتم لهم ما أرادوه فرجع إلى أرض فارس وتزوج ابنة داريوس التي أنجبت له ولداً - قتل بعد موته - أقام في فارس سنة ونصف وقرر الرجوع على أن يفتح جزيرة العرب وشمال فارس وحوض البحر المتوسط. لكنه أصيب بحمى ارتفعت بعد سهرة صاخبة درجة حرارته مما اضطر طبيبه ان يقضي مباته في حوض بارد وبقي لا يقدر على الكلام أربعة أيام حتى مات في 13 يونيو 323 ق.م في بابل وقد نقل جثمانه ليدفن في معبد أمون بصحراء سيوة.

وهو ما ذكرته بعثة التنقيب اليونانية عام 1989 حيث اكتشفت لوحة حجرية سجل فيها بطليموس أحد رفاقه:

«انــه من أجـل الاسكندر الشريـف المكـرم نقـل جثمانه إلى هنا بأمـر الإلـه أمـون».

زعزعة حكم القاجار وبروز رضا

لا بد انه لا مندوحة من الذكر هنا وقبل ان نطوي دثار الموضوع لننتقل إلى مثيرها مرة أخرى فالفتوق قد اتسعت ما يحتاج منا إلى شرح واف ليتكامل المشهد العام وتتضح الصورة جلية لخلفية الأمور.

قبل أربع سنوات من اغتيال الشاه ناصر الدين كان رضا عباس

قلي قد بدأ تاريخه العسكري، وتحديدا في نوفمبر 1892، غلاماً أمياً، وهو ذو اربعة عشر عاماً عمل سائساً في اسطبل خيل لكتيبة القوزاق الايرانية التي يقودها ويديرها ضباط روس وبولنديون. وفي عام 1900 انتسب جندياً مسلكياً وتدرج ليصبح برتبة ملازم عندما فتح المجال للايرانيين عام 1903 بدخول مسلك الضباط وكان مؤهلا لذلك، وهو من الحفنة الذين تدربوا على استخدام الاسلحة الحديثة ومنها رشاشات ماكسيم MAXIM البريطانية الصنع، وتعد من الاسلحة الفتاكة وقتذاك كما كان وصفه في دائرة معلومات السلاح الحديثة (من عيار 7,69 الذي يطلق خمسمائة طلقة في الدقيقة وتبرد ماسورته بالماء، وقد دخل الخدمة العسكرية في بريطانيا عام 1893 بعد حروب متابيلي MATABELE ضد مملكة الزولو بجنوب افريقيا والتي انتهت في اكتوبر 1897). وكذلك في معركة ام درمان بالسودان عام 1898 ضد دعوة المهدي التي قال عنها الشاعر والكاتب البريطاني بيلوك Belloc.

Watever Happens, we Have got, The Maxim Gun &They Have Not

ومعناه: كلما حصلنا عليه بفضل مدفع ماكسيم والذي لم يكن عندهم.

والذي استعملته السلطة في إيران بنجاح ضد حركات العصيان الكردية فحازت النصر عليها فلقب بـ «رضا ماكسيم» لتفوقه في استخدام ذلك السلاح.

في يونيو عام 1908، قامت قوة من القوزاق الايرانية بقيادة الكولونيل لبكهنكوف بقصف البرلمان بالقنابل مما ادى إلى ردة فعل شعبية، على اثرها تم عزل الشاه محمد علي، الذي كان قد اقتفى مبدأ اسلافه في تأييد السياسة القيصرية الروسية في إيران كما ذكرنا سابقاً عندها ساءت العلاقات فأقيل كل الضباط الروس وتولى الضباط الايرانيون مناصبهم عام 1911. حينها ابتدأ رضا بتعلم القراءة والكتابة وكان تعليما متواضعاً ومحدوداً صاحبه إلى آخر عمره وقد تجاوز حينها الثلاثين من العمر، ونتيجة إلى طبيعة عمله خارج المدن اتاح له الوقت الفرصة في الانكباب على القراءة، فابتدأ بقراءة كتب التاريخ القديم ومنها شاهنامه فردوسي الذي ذكر «مملكة مازندان» بلده بالاسم مرات عدة، وعلى الرغم من قراءته كتَاب تلك الفترة الذين كرسوا على الشأن الداخلي حدثاً وتاريخاً، ولكن فردوسي ظل ملهمه لسهولة اسلوبه وبساطة سرد حوادثه ولم يكن رضا ممن يهتم بما كتبه غيره ومن تأثروا بالغرب وآدابه. لان ذلك لم يكن من جملة اهتمامه لتعليمه المحدود فتوائم القبول والإعجاب بالمنَظر منذ ذلك الحين.

عام 1914 اندلعت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيران في معمعتها حين احتل الانكليز البصرة واجزاء من عربستان، كما احتلت روسيا اجزاء شمالية من ايران. وعند نهاية الحرب كان من تداعياتها زعزعة حكم القاجار الذي كان يعتمد على تأييد روسيا وابتدأت حركة وطنية تطالب بالدستور والمشروطية. بدأ نشاطه السياسي في نوفمبر وأخذ في الاتصال بالحركات الوطنية. وفي عام 1920 تسلم رضا، الذي اطلق

عليه لقب خان، قيادة القوزاق بعد ان اقال قائده الروسي الجنرال كليرج واعطى نفسه رتبة «ميربنجي» ليصبح جنرالا وقائداً عاماً للكتيبة في موقع قيادتها بقزوين، وقد اسفرت الاتصالات بينه وبين زعماء الحركة الوطنية، وعلى رأسهم سيد زين الدين طبطبائي، عن القيام بانقلاب عسكري ابيض وتسلم السلطة، وتم ذلك حينما وصل على رأس جيش قوامه ألف وخمسمائة جندي إلى طهران في 20 نوفمبر 1921 وقام بالسيطرة على مرافق الدولة. وفي صبيحة اليوم التالي طلب من الشاه أحمد شاه البقاء على العرش على شرط عدم التدخل في القرار السياسي، لمحاولته الاتصال بالانكليز وان كانت من دون جدوى، وخلال يومين وافق الشاه على شرطين آخرين هما تعيين طبطبائي (صدر أعظم) رئيساً للوزراء، والثاني تعيين رضا خان (سردار سيباه) قائداً عاماً للجيش. في 21 فبراير 1922 عرف العام والخاص من هو الحاكم الفعلي والرجل القوي لان رضا خان أصدر اعلاناً مقتضباً شدد فيه على «المحافظة على النظام ومن يخالف ذلك يعرّض نفسه لعقاب شديد».

في 26 أكتوبر 1923 أقصي طبطبائي فأصبح هو رئيس الوزراء ووزير الدفاع وقائد الجيش العام ولم يكن بحاجة إلى بقاء الشاه الضعيف في الحكم، الذي لم يبد معارضة للوضع الجديد اصلا، وكان بإمكان أحمد شاه ان يستعين بالمؤيدين لسلالة القاجار التي حكمت منذ عام 1779. ولكنه آثر عدم المواجهة وحياة المنفى في اوروبا كما سبقه إلى ذلك أبوه.

الطاعة والحكم

تسلم رضا خان مقاليد الحكم كلها وارجع للحكم هيبته فكانت فلسفته تلخصها مقولته: «لا أريد ان يحبني الناس بل اني اصر على ان تكون الطاعة لي». كان رضا يفكر في تحويل نظام الحكم في إيران إلى جمهوري اسوة بتجربة كمال اتاتورك في تركيا - كان من المعجبين به – ولكنه كان يعلم أن هناك تياراً قوياً من المعارضين لذلك. فقرر في ابريل 1924 وبصورة فجائية، لكي يقضي على من يعارضه نهائياً، أن يستقيل من مناصبه جميعها، وهو العارف مقدماً بأن هذا الفراغ الذي سيتركه لا يمكن ان تشغله أي قوى اخرى وهو ما حصل، فضربت الفوضى البلاد وعمت فيها وأغلقت الاسواق وتوقفت المصالح وفلت حبل الامن فخاف الناس من المجهول ولم يعد امامهم إلا ان يحرثوا الأرض طريقاً إلى مكان اقامته خارج طهران، فقام التجار والسياسيون ورجال الدين بإرسال وفود مطالبين بعودته، (ومن سخرية القدر ان أحد أعضاء هذه الوفود كان د. محمد مصدق، الذي اصبح خصماً لدوداً لازاحة ابنه محمد رضا شاه عن الحكم بعد ما يزيد على ربع قرن)، وبعد اسبوع من الالحاح رفض المجلس فكرة اعلان الجمهورية على أساس أنها لا تلائم ظروف إيران وإرجاع الملكية، وهو ما كان يهدف إليه رضا خان من هذا التكتيك السياسي، وهو المؤمن بفلسفة فردوسي القائلة «ان إيران لا يحكمها الا ملوك»، فتم له ذلك، وما إن حل اليوم الأخير من أكتوبر 1925 حتى أعلن المجلس نهاية حكم القاجار وتعيين رضا خان شاه لفترة تجريبية.

وبعد شهر ونصف الشهر تقريبا من ذلك في 12 ديسمبر، أضاف رضا خان لاسمه لقب بهلوي، حالما بسلالة تحكم إيران من بعده، ويعني اللقب صفة بطولية بالرجوع إلى المسميات الفارسية قبل الإسلام. وحينما أطلقه، كان يروم من ذلك امتدادا لسلالة البرثيين الذين حكموا إيران من 250 ـ 226 قبل الميلاد، وكانت عاصمتهم في خراسان لاحقاً ولغتهم هي البهلوية، احدى لغات إيران القديمة ليبين التصاقه بالماضي السحيق.

حكم مطلق للشاه

والبهلوية كما جاءت في كتاب «الفهرست» لابن النديم ـ تحقيق رضا مزنداري 1988 ص15، حيث ينسب إلى ابن المقفع قوله: « أما الفهلوية (البهلوية) فمنسوبة إلى «فاهلة»، وهو اسم يقع على مسمى بلدان، وهي أصفهان والري وهمدان ومانهاوند واذربيجان».

وفي كتاب «مفتاح العلوم» للخوارزمي: «من لغات الفرس، الفهلوية وبها كان يجري كلام الملوك في مجالسهم وهي لغة منسوبة إلى «بهلة» وهي اسم يقع على خمسة بلدان: أصفهان والري وهمدان ومانهاوند وأذربيجان».

أصر رضا بهلوي على أن يذكر في الدستور ألا يجلس على العرش شخص يحمل الدم القاجاري، قاطعاً الطريق بذلك على من يأتي من بعده، مطالبا بالعرش من سلالة القاجار المعزولة. وليفتحه مشرعاً لسلالته

ولوريثه ابنه الأكبر محمد رضا. وفي 25 ابريل 1926 توج نفسه شاها لإيران لتبدأ مرحلة جديدة من حكم، وضعت لبناته الأولى أفكار فردوسي قبل ألف عام ومن سار على شاكلته. واستمر حكمه المطلق حوالي ستة عشر عاماً إلى تاريخ عزله (15 سبتمبر 1941) من قبل الحلفاء. بسبب ميوله إلى دول المحور، مما أدى إلى غزو إيران وتحطيم قواها العسكرية خلال فترة وجيزة (48 ساعة) وتقسيمها إلى ثلاث مناطق، وتذكر ابنته اشرف عن تلك الفترة عن أبيها رضا بهلوي حينما التحق بهم في أصفهان في طريقه إلى المنفى: «لقد تركناه في طهران مثل برج عال وحينما وصلنا إلى أصفهان كان رجلا مريضاً مسناً مهزوما»، فغادر إيران نهائياً إلى جنوب إفريقيا حتى وفاته في 26 يوليو 1944. ولكنه قد جمع ثروة طائلة خلال حكمه الوجيز بلغت من الأراضي والمقاطعات ستمائة قرية، تعادل آنذاك أكثر من ستين مليون جنيه استرليني.

المبحث الرابع:

رضا شاه ألغى اسم فارس وأبدله بإيران

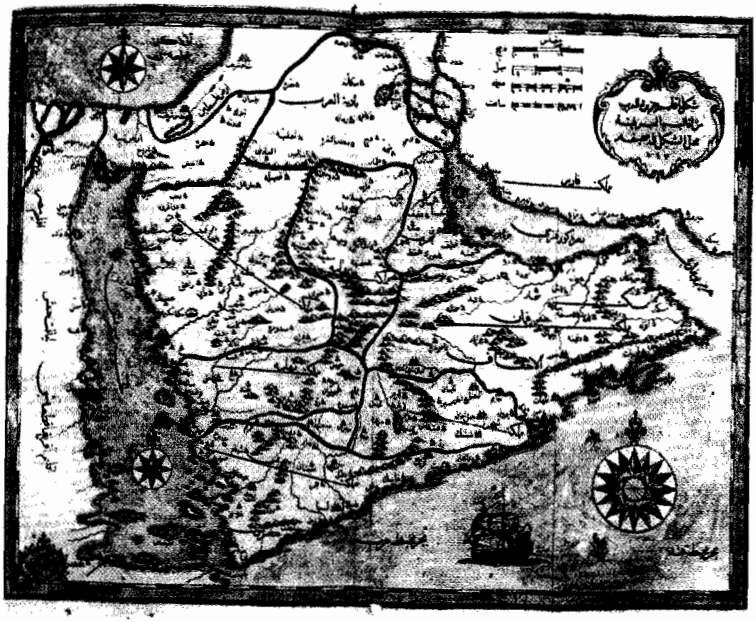

لقد قتل رضا بهلوي الإسلام ورفسه منتهجاً خطاً قومياً ينزع به إلى إحياء مجد إيران الذي قوضته سيوف العرب, وبعد موته أقيم له تمثال في المحمرة، مشيراً بأصبعه نحو العراق حيث طاق كسرى.

كان رضا شاه يمثل الأخمينيين الجدد، متلحفاً بالإرث الآري القديم، وهو الشعور بتراكم خمسة وعشرين قرناً من السلالات الملكية التي تشكل الحيثيات الرئيسية للتاريخ القـومي ابتداء بقورش الكبير وما تبعـه من ملوك، والتي جعلت الخليط القبلي الغالب والسكان الأصليين ينصـهرون في البوتقـة الإيرانيـة، «وإن الشاهنشاه (ملك الملوك) هو الذي يحكم الأمة، وإن النعمة الإلهية المقدسة قد منحت له من قبل اهـوراً

● رضا بهلوي

ما زدا (آلهة الخير)، فالشاهنشاه هو أبو الأمة ومعلمها وقائدها وقاضيها ومخطط مسارها». هذا ما نادت به شريعة زرادشت وآمن به رضا بهلوي.

فكان في الوقت نفسه يعتقد ان هذا التاريخ الطويل تخللته فترة

غير سعيدة سببها الفتح الاسلامي الذي غيّر هذه المفاهيم الاسطورية القديمة، وقلبها رأساً على عقب. يقول: «اسد الله علم وزير بلاط الشاه». «ص44»: «إن فهم الايرانيين للاسلام غائب وبسيط في أحسن الاحوال، فجهلهم باللغة العربية التي هي الاساس لفهم الدين جعلتهم يتجهون في ممارسته إلى تقاليدهم القديمة، والايرانيون عموماً ليسوا كالعرب، فهذه عندهم ليست العامل الاساسي لثقافتهم، وكون الاغلبية العظمى هم من الشيعة الذين لا يعرفون لغة القرآن ومادة الصلاة اليومية، بل يركزون على الطقوس بصورة خاصة، والتي توقت بالتقويم القمري جعلتها تصطدم بالاحتفالات التقليدية الايرانية القديمة التي تحكمها التقاويم الشمسية»، وفي موقع آخر يقول في ص162: «حينما اعترض ممثل اسرائيل في طهران على تقارب إيران مع العرب، كانت نصيحة الشاه أنه يجب أن نتفادى العرب، فهم عرب أولا وقبل كل شيء، اما الدين فيأتي في الدرجة الثانية من اهتماماتهم كاستمرار للقومية العربية»

نهج رضا شاه :

من هنا جاء منهج رضا شاه وخلفه مناهضاً لكل ما يحمله الاسلام وان كان قد ولد مسلماً، ولكنه كان يجد صعوبة في فهمه، وربما كان اهتمامه اكثر بتعاليم الزرادشتية ليبلغ في ذلك توأم هدفه مع الماضي القديم وفلسفة إيران الآرية. معتبراً رجال الدين من الملالي مروجي خرافات مخزية فحلق لحاهم واعتبرها علامة للتأخر العربي، ومثلها لبس العمامة، وأعلن سفور المرأة، وعاقب من يخالف ذلك من الملالي وقلص نفوذهم الديني فأهمل المساجد التي

كان عددها قد بلغ اربعمائة مسجد في طهران، ابان تسلمه الحكم عام 1926، لتصبح قُبيل عزله أربعة وعشرين مسجداً عام 1941 وكان يترك المساجد بلا ترميم، واذا ما انهارت بنى عليها مخافر للشرطة أو دوائر للحكومة. ويذكر طاهري في كتابه ص42: انه بنى دار الاوبرا على أطلال المسجد الكبير، كما حرم المدارس الدينية ومسيرات التعزية وتجمعاتها في عاشوراء.

واستمر في برنامج ارينة إيران بسرعة مذهلة لاعادة الهوية القديمة، فألغى التاريخ الهجري ليبعد إيران عن التأثير العربي، وشجع على تغيير اسماء المواليد من العربية إلى الإيرانية القديمة، وغيّر الالقاب واهمل المعالم الاسلامية التي تعكس التغلغل العربي واثاره، وعلى العكس اهتم بالتنقيب عن مدن الفرس القديمة واعتماد الاسماء القديمة للمدن والتركيز على قبور الملوك القدماء ومعابدهم. وبلغ هذا المسار أوجَه في منتصف الثلاثينات حينما تأسست مؤسسة فرهانغ ستان (الاكاديمية الايرانية) فقامت بإلغاء كل ما يمت إلى العربية والعرب بصلة، فتغيرت بذلك حتى ملابس العامة إلى الزي الاوروبي وادخل القبعات لباساً للرأس واضيفت مفردة «شاپو» اي القبعة بالفرنسية، إلى اللغة الفارسية، وكانت سيارات النقل العائدة للجيش توزع آلاف الالبسة الاوروبية في الارياف والقرى، وتغيرت اسماء الشوارع والمحلات التي تحمل اسماء عربية او اسلامية، وفي المقابل لم يطلق اي اسم يخلد النبي وآل بيته من الأئمة الاثني عشر حتى في المدن الدينية مثل مشهد وقم.

اسم فارس على الخليج :

في عام 1935 كانت طموحات رضا خان أكبر من ان يطلق على البلاد اسم فارس وهي اقليم صغير منعزل تفصله عن سواحل الخليج سلسلة جبال زغروس الممتدة من كرمنشاه شمالاً حتى برزقون جنوباً واطلق اسم إيران ليضم كل الاقاليم الاخرى مما يعني ان ابقاء اسم فارس هو تقليل وتقزيم لدولة كبيرة وقديمة صاحبة مشروع ضخم، فاختفى ذلك الاسم ولم يبق إلا على الاقليم والخليج الذي التصق بما تظهره الخرائط والمراسلات البريطانية بالدرجة الأولى، وهي القوى العظمى المسيطرة على تلك المنطقة، آنذاك وليست لانه اهتمام رضا خان بالخليج- كما حصل في آخر أيام حكم ابنه محمد رضا- ويستمر حالياً ولو كان غير ذلك لأصر على تسميته بالخليج الإيراني، أو الاري، مثلا اليست فارس جزءاً ضئيلاً من الكل الإيراني، فما الموجب لتفضيلها وهوالداعي لنهضة ايران؟ ولكن الخليج آنذاك لم يكن بالأهمية ليشكل هاجساً قومياً استراتيجياً بالنسبة لمقياس ذلك الوقت وهو عكس ما يشاع الآن وبقيت التسمية لتشبث بريطانيا بها لاغير كما هو معروف.

سلخ عربستان :

لمن لا يعرف وإلى من يهمه أن يعرف عن تركيز مخطط رضا خان الذي لا يحمل وداً نحو العرب، بل التوجه للقضاء على وجودهم بسلخ أرض مساحتها ما يقارب من 160 ألف كيلو متر مربع كان يسكنها أكثر من مليوني نسمة غالبيتهم من ابناء القبائل العربية المعروفة من دون اعطائهم حق تقرير المصير تحت

طائل الهيمنة المركزية للدولة على أساس ان أميرها كان تابعاً إيرانياً، على الرغم من تعهدات بريطانيا القوة العالمية المسيطرة على المنطقة آنذاك وبضمنها ثلث مساحة إيران.

لقد كانت إمارة المحمرة والتي اطلق عليها الفرس أنفسهم مسمى عربستان (أي بلاد العرب) كياناً مستقلاً تكفله اتفاقات ثنائية امتدت حتى عام 1919 كما هي الحال مع إمارات الخليج بأجمعها، خاصة بعد أول اكتشاف للنفط في المنطقة في أراضيها مما جعلها تتمتع علاوة على الموقع الاستراتيجي بوضع متميز.

لقد جاءت عملية السلخ هذه كـ «بروفة» لما تبعتها من مطالبات وضم أجزاء عربية أخرى في الخليج، فلابد لنا هنا من التعرض والخوض في التفاصيل, سواء كان ذلك اتباعاً او اختلافاً جدلاً أو حواراً.

فوجدنا الاستعانة بالدراسة الأكاديمية «لتيودور سترلنك» عن حكم الشيخ خزعل واحتلال المحمرة ـ جامعة انديانا في الولايات المتحدة عام 1977. وهي الأقرب للحيادية.

خزعل ورعايا الفرس :

● الشيخ خزعل المرداو أمير المحمرة

كان المشهد العام الذي توالت فصوله بمتغيرات سريعة تقطع الأنفاس، واستمر التأزيم فأصبحت البلاد مسرحاً للخلافات ومرتعا للتدخل الأجنبي وفرصة لطالبي الانفصال والانسلاخ والاستقلال للأقليات العرقية، مثل ثورة بوز كوجك خان في جيلان ومحمد تقي خان في خراسان ومحمد خباياني في اذربيجان وحركة سملو في كردستان والبختيارية في لورستان.

أما إمارة المحمرة في عربستان، فقد حصلت من الحكومة البريطانية على ضمانات باستقلالها وحمايتها نتيجة المساعدات والخدمات التي قدمها أميرها الشيخ خزعل للمجهود الحربي البريطاني ابان احتلالها للعراق منذ نوفمبر 1914، اضافة إلى المحافظة على امتيازات ومشاريع شركة النفط البريطانية العاملة فيها، والتي تناولتها

الاتفاقية البريطانية- الفارسية التي وقعت عام 1919.

كانت من أوليات رضا خان بعد ان تولى رئاسة الوزراء في 26 اكتوبر 1923 مضايقة الشيخ خزعل حول تلكؤه في دفع الضرائب المتراكمة عليه، وكان قد ارسل قوة عسكرية ابان توليه وزارة الدفاع وقيادة الجيش قبلها في مايو 1922. وصلت تلك القوة إلى شوشتر في طريقها إلى المحمرة التي وصلتها في 20 يوليو، وكانت عبارة عن 500 عنصر من جنود الخيالة ترافقهم المدفعية. وكان مظهر الاستهداف قد تبين بصورة أكثر وضوحاً عند تسلمه رئاسة الوزراء، حيث خاطب الشيخ خزعل على اساس انه من رعايا الدولة ولا يختلف مركزه وامتيازاته عن أي شيخ قبيلة آخر مثل البختيارين والقاشقائين والكوهغلو والقبائل البدوية او شبه البدوية، ونتيجة لتلك الضغوط وافق الشيخ خزعل على دفع نصف مليون تومان لتسوية متأخراته من الضرائب على دفعات الأولى نقدية قدرها مائة ألف، والباقي يقسط على مدى 20 سنة، على ان يبقي السيطرة على ايراداته.

خلال هذه الفترة واصل رضا خان تجريد القبائل عامة من قوتها واخضاعها للقوة العسكرية المركزية، فقضى بذلك على بعض حركات العصيان وارسل زعماءها إلى طهران للإقامة الجبرية.

في يوليو 1924 تسلم خزعل أمراً من رضا خان بتسليمه الفرمان الذي أصدره له الشاه مظفر الدين في 10 اذار 1903 بخصوص ملكية

الأراضي، ومنها الموانئ، بأن ملكيتها ستؤول إلى الدولة. وكان الشيخ خزعل يعتبرها أراضي عربية آلت إليه بالوراثة بموجب الحق الشفوي البريطاني، إلا أن الحقائق الثابتة أدت إلى قبول بريطانيا بالأمر الواقع، فهي حينما أعطت تلك المواثيق والتعهدات لشيخ المحمرة لم تكن لفارس قوة تذكر، وهي الآن تتمتع بقوة عسكرية لا تستهان، وان الحكومة في طهران لم تكن على اطلاع بتلك التعهدات، خصوصاً أن الحكومة الآن تعتبر خزعل أحد رعاياها الفرس وان الدولة المركزية ستقوم بالقضاء على الحالات شبه المستقلة أو التي تتمتع بحكم ذاتي، والأمر في ذلك ان سياستها الآن هي ترسيخ النظام المركزي، وفوق كل هذا فإن الحكومة البريطانية حالياً تحترم وحدة واستقلال فارس بشكل مطلق.

حاول الشيخ خزعل الانتقال إلى العراق، لكن حكم الانتداب البريطاني عارض ذلك خوفاً من إثارة القلق في الأوضاع العشائرية غير المستقرة.

استمر رضا خان في حشد قوته العسكرية في مناطق نفوذ الشيخ خزعل باحتلال هنديان ودزفول، وأثارت حركة قبيلة بني طرف ضد خزعل والتي قامت باحراق قصره في الحميدية مما زاد في عضد رضا خان بتسهيل مهمته، كما ساهمت صحف طهران بالدعاية لإزالة الوضع الضعيف الذي لازم الشيخ خزعل، والذي لجأ إلى المناورة للرضوخ للسلطة المركزية، وبين ذلك في برقية له إلى رضا خان بتاريخ 24 نوفمبر 1924، إلا ان رضا خان رفضها علنا. في 5 ديسمبر ارسل الشيخ خزعل

ابنه الثاني ولي عهده عبدالحميد للاجتماع برضا خان الذي كان قريبا من الأحوان، واعقبها باجتماعات ليومين متتاليين بحضور الوزير المفوض البريطاني ولكن ذلك لم ينتج إلا وعوداً وتعهدات براقة منه، أظهرها تصريحه القائل انه يتمنى «ان يكون جميع أصدقاء بريطانيا في جنوب فارس أصدقاء لطهران، وان يناصروا ويبقوا إلى جانب حكومتهم». كما جاء في تقريره إلى لندن: «نحن راغبون بشكل صادق في إثارة موضوع الجنوب في اتفاقية طهران وجعل سردارسيباه (قائد الجيش) رضا خان أن يدرك ذلك بنفسه».

المحافظة الثالثة عشر:

لم تكن نية الشيخ خزعل السفر إلى طهران بنفسه. وبناء على ذلك حاول قائد الحامية العسكرية الجنرال زاهدي اقناعه، حين اجتمع به في ليلة 19 أبريل 1925 الموافقة ليلة 25 رمضان، على متن يخت الشيخ خزعل IVY (آيفي) الراسي أمام قصره في الفيلية قرب المحمرة، حيث قدم هو على زورق فارسي حربي (خوزستان) وعندما أرخى الليل سدوله وفي حوالي الثامنة مساء صعد خمسون جندياً فارسياً إلى «آيفي» واقتادوه إلى «خوزستان» ومنه إلى سيارة كانت بالانتظار ومعه ابنه عبدالحميد ولي عهده إلى دزفول مركز القيادة ثم طهران، حيث اعتقل فيها إلى تاريخ وفاته في 30 يونيو 1936 وكان قد بلغ من العمر 75 سنة، كان رضا خان يصبو في ذلك لتقوية سلطته المركزية والقضاء على سطوة القبائل ونفوذ رجال الدين، كما اعتمد على غرس أفكار أمجاد الفرس التاريخية وادخال التمدن والفرنجة لتغيير واقع اجتماعي متمسك بموروث عربي دخيل

وقطيعة لا رجعة فيها للعادات المستقاة من الإسلام والعرب، فقضاؤه على خزعل وامارته العربية زاد من شعبيته ليصبح على اثرها رضا شاه بهلوي في ديسمبر 1925.

واسدل الستار باحتلال إمارة عربية منذ ذلك الحين واطلق عليها المحافظة الثالثة عشرة وعلى هذا الأساس، فإن المجال لا يزال مفتوحاً للزيادة. وهو ما صرح به علي أكبر ناطق نوري بأن البحرين هي المحافظة الرابعة عشرة (فبراير 2009).

غضت بريطانيا النظر في مساعدة الشيخ خزعل تجاه تجريده من حق سبق لها الاعتراف به، خاصة ان خدماته لها في نجاح حملتها على جنوب العراق في نوفمبر 1917، وتقديمه كبش فداء عام 1925 لرضا خان وهو التكتيك نفسه الذي اتخذته بعد ما يقارب نصف قرن في تقديم الجزر الثلاث عام 1970 لابنه محمد رضا، والفرق التنازل الأول كان كبشا كبيرا، بينما الآخر طلي ضئيل، ولكن المبدأ واحد في تقديم التنازلات لأراض عربية إلى غير العرب بحجة إقامة علاقات جيدة مع إيران أو ما يطلق عليه في لغة الدبلوماسيين «ريل بولتيك». Real Politk

ولكن هذا الحدث لم ينه مشاكل الحدود بين فارس والعراق التي تعود في تاريخها إلى مئات السنين، هي فترة الحكم العثماني للعراق من عام 1554 حتى 1914. عقدت خلاله تسع عشرة اتفاقية ومعاهدة، وكان

العمر التقريبي لكل معاهدة حوالي عشرين عاما على الرغم من ان كلا منها كانت: «تنص على أنها اتفاقية نهائية، وان الخلافات ستزول بعدها» لتنقض بعد حين وهلم جرّا.

خمس معاهدات لشط العرب

اما عدد المعاهدات التي تتعلق بشط العرب فقط فعددها خمس وهي:

معاهدة أرضروم 1847.

بروتوكول الاستانة 1913.

تحديد الحدود المائية 1914.

معاهدة سعد آباد 1937.

وآخرها اتفاقية الجزائر مارس 1975.

في المعاهدة الأولى تنازلت الدولة العثمانية عن عربستان التي كانت تقطنه ولا تزال قبائل عربية كبيرة من كعب وتميم وربيعة، وكم كبير من القبائل الصغيرة التي لها امتداد في العراق، مقابل السليمانية في كردستان العراق. اما السيادة على ميناء المحمرة، فهي لا تشمل كل شط العرب، بل منطقة صغيرة محيطة بالميناء والسماح للسفن الإيرانية في حق الملاحة البريء (لا يشمل السفن الحربية). وترك ذلك الميناء لا يعني حقا لموانئ أخرى في اتباعه.

اما المعاهدة الثانية، فقد وضحت ان شط العرب كله كاملا وإلى

مصبه في الخليج تحت السيادة العثمانية، كما أصبحت الحدود هي الخط المائي الواطي على الجهة اليسرى (الجهة الإيرانية).

وفي الثالثة تنازلت الدولة العثمانية عن خط وسط أمام المحمرة بطول 7,25 كلم. كما أكدت على السيادة العثمانية الكاملة على شط العرب.

أما معاهدة سعد آباد فأضافت خط التالوك (الخط الذي يقع في منتصف النهر) أمام المحمرة بطول 7,25 كلم وامام ميناء عبادان بالمسافة نفسها. وبقاء كل شط العرب تحت سيادة العراق.

وجاءت معاهدة الجزائر باعتماد خط التالوك (خط الوسط بين الأنهر التي تشكل حدوداً دولية) على طول شط العرب من نقطة الالتقاء الحدود الإيرانية به إلى مصبه في الخليج، ويعني اقتسام السيادة بين العراق وإيران لشط العرب مناصفة. وكان في مقابل ذلك وقف اسناد إيران لحركة الأكراد المطالبة بالحكم الذاتي. ويذكر «أسد الله علم» في كتابه ص 417: «ان محمد رضا شاه فقد من وزنه ثلاثة كيلوغرامات خلال المباحثات في الجزائر، وكان معدل نومه ساعتين في اليوم».

ان الكلام عن تاريخ المعاهدات المتكررة هو مسبار إلى العلاقات المضطربة تاريخياً، ولعهود مختلفة مرت بفترات بسيطة من الاستكانة ابان الحكم الملكي وكأنها وقفة لالتقاط الأنفاس بعد احتقان وتراشق

وتهديد تتبعه اختراقات حدودية وصدامات مسلحة تنتهي بحروب شاملة مدمرة، آخرها امتدت لمدة 8 سنوات من الموت والدمار، تذكرنا بالحالة الألمانية خلال ثلاثة قرون والمطالبات المستمرة بمناطق حدودية.

المبحث الخامس:

تسمية «الخليج العربي» بدأت في الخمسينات.. بعد «خليج البصرة» العثماني

● تعتبر خارطة الإدريسي من أدق الخرائط التي رسمت في العصور الوسطى. كان المأمون بن هارون الرشيد (218 هـ / 833م) قد أنفق أموالا طائلة لتخصيص بعثة لقياس محيط الأرض والتأكد من صحة حسابات ارتوستينس. استعمل علماء العرب آنذاك الزوايا والحسابات الرياضية واتخذوا من الدب القطبي مرجعا لحساباتهم ورسوماتهم كما أنهم استعملوا الميل العربي والحبال في قياساتهم بدلا من الميل اليوناني فتوصلوا إلى نتيجة مذهلة في حساب محيط الأرض فكانت حوالي 20400 ميل عربي أي حوالي 40000 كيلو متر وهي أدق نوعا ما من حسابات ارتوستينس وقريبة جدا من المتوسط الفعلي لمحيط الأرض وهو 40,041,47 كم. ثم تطورت الخرائط العربية لتشمل الخرائط الإقليمية. ويعتبر عالم الرياضيات المروزي أول من أدخل نظام الهندسة الكروية وطرق إسقاط الخرائط للتحويل بين الإحداثيات الكروية والأنظمة الأخرى. كما يعتبر الإدريسي من أشهر العلماء العرب في تطوير الخرائط وتدقيقها لما أضاف الأنهار، المرتفعات، والبحيرات في الخريطة ووضع حدودا للدول واستخدم مقاييس رسم دقيق، كما أنه من أوائل من وضعوا نظرية بطليموس واقعا عمليا بكرته الفضية التي رسم عليها عالمه الذي استكشفه.

يذكر حسن العلوي في كتابه «اسوار الطين»، ويشبه خطأ بكون الكويت هي «سوديتنلاند Sudetenland» العراق، والحقيقة ان سوديت العراق هي عربستان، فالمقارنة هنا هي اكثر حقيقة وواقعية، لان اقليم «السوديت» الجنوبي هو ارض المانية تسكنها غالبية المانية لها امتداد تاريخي تصحبه حركات سياسية مطالبة بالانضمام ولمّ الشمل بصورة مستمرة تدفعها وحدة العرق ونزعة القومية وتربطها اللهجة والمذهب والعادات وتشابه المعيشة. وهي الحالة نفسها لسكان عربستان والعراق، فان اشتراك اللهجة والمهنة والامتداد العائلي والقبلي والتشابه البيئي لا يجعل مجالا للتفرقة بين الاثنين، فطبيعة الأرض واحدة (انهار واهوار)، والمعيشة مشابهة (فلاحة ومراع) ولهجة مطابقة لأبناء عشائر واحدة فرقتها حدود رسمت قبيل الحرب العالمية الأولى. ومن يقرأ كتاب «جنوب غرب فارس» لارنولد ويلسون . الذي عاش وعمل وشارك في رسم الحدود لعقدين من الزمن قبيل نهاية القرن التاسع عشر . فسيجده شهادة كاملة شاملة على ما سبق.

يمكن اجمال الموقف عن طبيعة العلاقات بين المملكة العراقية وايران البهلويه فكلتاهما اسستا في عشرينات القرن الماضي وتحديداً عام 1921 قدوم الشريف فيصل بن الحسين إلى بغداد لاعلان المملكة العراقية وانقلاب رضا خان على الحكم القاجاري في السنة نفسها وكانت إيران قد رفضت الاعتراف بالعراق الحديث الذي اسسته بريطانيا عام 1921 ولكنها اعترفت به عام 1929.

بعدها جاءت فترة حلف بغداد وهي الوحيدة، حينما استقرت الأمور نوعياً من عام 1955 حتى بداية تسمية الخليج العربي في بغداد في نهاية الخمسينات، 14 يوليو 1958، حينما قضي على النظام الملكي، عندها عقدت معاهدة دفاعية بين إيران والولايات المتحدة في 9 مارس 1959 لتخوف إيران من تأييد موسكو للعراق اعقبتها مطالبة عبدالكريم قاسم بعربستان في 19 ديسمبر 1959.

وفي صبيحة اليوم التالي هاجمت جريدة «اطلاعات» المقربة من الشاه بعد مطالبة قاسم باعتبار العراق كله اقليماً فارسياً يجب ان يرجع إلى أصله. ثم حدث فراغ سياسي لانسحاب بريطانيا من الخليج 1967. ومحاولة الشاه اضعاف العراق منذ توقيع المعاهدة السوفيتية ـ العراقية 1972.

لكن حركة الاكراد شمال العراق وتأييد إيران لها أصبحت محوراً وسبباً رئيسياً بتعجيل اتفاقية الجزائر عام 1975 وانهاء خلاف شط العرب, لأجل مؤقت لم يستمر طويلاً، وبعده بأربع سنوات حيث حلت نهاية حكم الشاه ومغادرته إيران 16 يناير 1979 ورجوع الخميني واعلان الجمهورية الاسلامية, ولم تلبث الاجواء حتى تعكرت فانتهت بالحرب العراقية – الايرانية 1980 – 1988, وكان من نتائجها غزو الكويت واحتلالها 2 اغسطس 1990. التي ادت إلى حرب الخليج الاولى، فبراير 1991 طرد العراق من الكويت.، ثم حرب الخليج الثانية 20 مارس 2003 ونهاية حكم البعث والقبض على صدام 13

ديسمبر 2003 واعدامه في 30 ديسمبر 2006.

نصر للشاه ونهاية لحكمه:

كان اتفاق الشاه مع صدام 1975 احد الاسباب للقضاء عليه. فقد فتحت الحدود بين البلدين نتيجة للتقارب، وبدأ سيل عارم من اشرطة الكاسيت يجتاح إيران يحملها زوار العتبات في كربلاء والنجف، حيث كان يقبع الخميني منفيا فيها، فتحولت تلك الدعاية ضد الحكم القائم اسفينا دق بعناية فائقة لانهاء حكم الشاه. وبعد اقل من أربع سنوات اختمرت العملية، معلنة اضطرابات تبريز في يناير 1978 وابتدأت الجوامع والبزارات بحملة منظمة ادت إلى اكتظاظ الشوارع في المدن الايرانية بالاضرابات والمسيرات باعداد لا تحصى، يقودها رجال الدين الذين يستحثون الموقف لتسلم الحكم، مما أدى إلى طلب الشاه طرد الخميني من العراق مغادراً إلى فرنسا بعد ان رفضت الكويت زيارته، وفي يناير 1979 تم ذلك وغادر الشاه طهران بلا رجعة حتى وفاته في مصر بعد سنتين من عدم الاستقرار. ويختلف البعض: هل ان شرارة الثورة قد قدحها الخميني أم علي شريعتي الاستاذ السابق في جامعة طهران الذي توفي في المنفى عام 1977؟ ومهما حصل فقد رمت الشيعة الاصولية بكامل ثقلها لعزل الشاه مانحة موافقة آنية دينية لنشاط قوى العلمانيين واليساريين والشيوعيين والمثقفين الذين كانوا يحاربون الشاه للاصطفاف بنسق واحد لتعجيل نهايته.

ولابد لنا هنا استرجاع الماضي القريب قليلاً لكشف الظروف

والملابسات التي أدت لما سبق: في 15 سبتمبر 1941 تنازل رضا شاه عن العرش إلى وريثه محمد رضا، وكان ذا اثنين وعشرين عاماً (هزم يزدجرد الساساني في عام 632 بنفس السن) لا يحمل خبرة ليتسلم بلداً معقداً محتلا وماكينة عسكرية محطمة، ويذكر أمير طاهري ص 99 «ان كبار قادة الجيش الايراني آنذاك قد هربوا بملابس نسائية حينما غزا الحلفاء ايران». وكان لا يدري من اين يبدأ، فقد بدت في الافق مؤشرات رجوع اصحاب النفوذ القديم من اصحاب الاراضي الذين يملكون 70% من المزروعة. وفي مقدمتهم آل قاجار المنفيون، كما ظهرت على السطح قوة اخرى كان رضا شاه قد قلم نفوذها، وهي طبقة رجال الدين، وعلى رأسهم آية الله العظمى ابو القاسم الاصفهاني ومن ثمة ثورة القبائل التي ابتدأها القاشقائيون وزعيمهم بوير احمد في اقليم فارس الذين كانوا يعتبرون شيراز عاصمة لهم. تبعتهم القبائل البختيارية في لورستان قرب منابع النفط، وفي الشمال ثارت القبائل الكردية. بمشاركة بعض التركمان باعلان جمهورية ماهباد التي تحميها القوات الروسية المحتلة، وفي عربستان تمرد قادة حزب السعادة الذي رفع نفس الشعار مهدداً بالانفصال. ومثلهم القبائل البلوشية التي كانت تحت سيطرة الاحتلال البريطاني مخافة ان ينتقل العصيان إلى مناطقهم في الهند البريطانية، كما ابتدأت انتفاضة للعشائر العربية في عربستان تزعمتها عشيرتا كعب دبيس وبني طرف.

ثلاثة كيانات:

امام هذا المشهد المضطرب والعالم مشغول بالحرب العالمية الثانية

تبادر إلى ذهن وزير خارجية الولايات المتحدة جيمس بايرنز عام 1945 ان يقدم اقتراحاً إلى روسيا لتقسيم إيران إلى ثلاثة كيانات منفصلة، واحد منها إلى الاكراد والتركمان، والثاني إلى الفرس، والثالث إلى العرب، ولكن وزير خارجية روسيا مولوتوف لم ترق له الفكرة وعارضها ستالين فتم سحبها من قبل الاميركان.

يقول أسد الله علم في كتابه «الشاه وأنا» ص 84: «ان الشاه كان يردد تلك القصة مراراً وتكراراً واوضحها في اجندته ليوم الأحد 10 اغسطس 1969». ويظهر من ذلك ان الشاه كان مؤمناً بامكانية تحقيق هذا المخطط ان تركت الأمور بدون عقال، فكان همه هو اشغال الرأي العام وتعتيمه بأمور خارجية والمطالبة بمزيد من التسلح وبالحق التاريخي، كما كانت تدعيه إيران في مطالباتها بالخليج، وهي السياسة نفسها السائرة في يومنا هذا على الرغم من تبدل الأوضاع السياسية في إيران من حكم ملكي مطلق (اوتوقراطي) إلى حكم ديني مطلق (ثيولوجي) ليظل الهاجس نفسه موشوماً بالذاكرة الايرانية.

خليج البصرة :

وما ان انتهت الخمسينات من القرن المنصرم واستقرت الأمور السياسية للشاه بعد رجوعه في 21 فبراير 1953 من المنفى الموقت، والقضاء على حركة محمد مصدق، وكان قبلها قد تعرض لمحاولة اغتيال في 4 فبراير 1949 كادت تقضي عليه، حتى ابتدأت مطالبة إيران بالاشراف على حركة الملاحة في شط العرب مناصفة، فابتدأ الخلاف مع

العراق الذي كان رده ان شط العرب عربي، وابتدأ في نهاية الخمسينات تسمية الخليج العربي، والذي كان قبل ذلك يظهر في الخرائط العثمانية ومراسلاتها الرسمية منذ احتلالها العراق في منتصف القرن السادس عشر باسم خليج البصرة وأحياناً خليج القطيف. ويذكر اسد الله علم عن الشاه: «ان جريدة التايمز اللندنية اعطت احتراماً لهذا الاستعمال وتبعها عبدالناصر وبقية العرب»، ص 121. وعندنا في الكويت قبل الاستقلال مثلاً كانت جميع المراسلات البريدية ومستندات الشحن البحري تعنون: الكويت بلاد العرب الخليج العربي. وكان ظن الشاه دائماً بأنها محاولات بريطانية ضد إيران بعد تأميم النفط فيها. وفي يوميات اسد الله علم أيضاً بتاريخ 6 يناير 1970: «اخبرت الشاه عن كتاب سبق ان اصدر عام 1956، من المعهد الديني التابع للجامع الأزهر في القاهرة يحتوي على اصطلاح الخليج الفارسي. فأجاب الشاه: «صحيح وان عبدالناصر كان يستخدم في خطاباته نفس التعبير في البداية، ولكن جريدة التايمز اللندنية هي التي اضافت لتعبير «الخليج العربي» نوعا من الاحترام فتبناه عبدالناصر وتبعه بقية العرب في استعماله».

كما يذكر اسد أيضاً على ص 168 ان الشاه ثارت ثائرته حينما سمع عبر اذاعة الـBBC ان أحد اساتذة جامعة اكسفورد قال «ان خورستان عربية»، وكانت الشكاوى تنهال على السفير البريطاني في طهران كلما ظهر مقال في الصحافة البريطانية يشير إلى الموضوع نفسه، الذي اصبح شغله الشاغل، بالاضافة إلى جهاز الدولة المعبأ اعلامياً في الأصل لاثبات فارسية الخليج.

مخاطبة قورش والعلاقة مع اليهود:

لقد اثمرت هذه الغرسة التي انبتها رضا شاه، فوجدت من ابنه رعاية واحتضاناً وهوى، والأبن كما يقال «سر ابيه». هذا الهوى والنفس الاخميني الذي بلغ اوجه في 12 اكتوبر 1971 في احتفالات بيرسيبوليس persepolis «ترجمها «الشاعر اليوناني اسخيليوس» خطأ بانها مدينة الفرس، وهي تعني «مدمرة المدن»، تخليداً لخمسة وعشرين قرنا لحكم الاكاسرة حينما وقف محمد رضا شاه امام قبر قورش في «بارسارغاد» مخاطبا: «يا قورش الملك الكبير ملك الملوك امبراطور الفرس عاهل ارض ايران. انا شاهنشاه إيران اقدم احترامي الشخصي ونيابة عن الامة. في الوقت الذي تجدد إيران اتصالها بالتاريخ اتينا اليوم لنريك شكر الامة الفياض ايها البطل التاريخي الخالد مؤسس اول امبراطورية في العالم والمحرر الاكبر وابن الانسانية الاثير. سأبقى مخلصا إلى القيم الابدية لايران الآرية نم في سلام فنحن يقظون».

وما ان اختتم الشاه خطابه حتى هبت فجأة عاصفة صحراوية اثارت الغبار في وجوه الحضور، وهو ما ذكرته زوجة السفير الاميركي سنثيا هيلمز في كتابها زوجة سفير إيران ص 64. كانت احتفالات باذخة حضرها معظم ملوك وحكام العالم، وقدمت في ندوة خاصة لها ألف دراسة عن قورش كلف باعدادها متخصصون من جميع انحاء العالم.

هذا القورش، الذي كتب على معبد عاصمته بيرسيبوليس: «هو

رامازدا الاله القوي الذي خلق الارض والسماء والبشر، الذي اعطى المجد للانسان، الذي نصب قورش بن داريوس الاخميني. الذي شيدته هنا كلها من بركة هرمازادا»، هو الذي احتل بابل 538 ق. م وحرر اليهود بعد ان سبى نبوخذ نصر اورشليم (القدس) وحطم الهيكل وشتت اليهود وأخذهم اسرى إلى بابل في 586 ق. م، كما جاء في الاصحاح:137 «على انهار بابل هناك جلسنا عندما تذكرنا صهيون ان نسيتك يا اورشليم فلتنسني يميني» فدخل تاريخ اليهود دوراً جديداً، حيث اذن لهم ان يرجعوا إلى اورشليم، وان يبنوا الهيكل، وأعاد إليهم أواني الذهب والفضة التي سلبها نبوخذ نصر من قدس اقداسهم. ومن حدسيات المؤرخين: «ان قورش امطر غيث جوده على اليهود، مكافأة لمساندتهم الفرس في فتح بابل. ومما زاده رأفة بهم هو التشابه الموجود بين عقيدتهم ودين زرادشت»، فجاء في سفر اشيعا من الاصحاح الخامس والاربعين: «هكذا يقول الرب لمسيحه لقورش الذي امسكت بيمينه لأدوس امامه امما واحقاء ملوك».

وردفي كتاب «حقائق عن اسرائيل» الذي صدر عام 2008 بمناسبة الاحتفال بمناسبة تأسيسها الستيني ص 14: «تنفيذاً لأمر أصدره قورش ملك الفرس الذي احتل الامبراطورية البابلية 538 ق. م انه غادر زهاء خمسين الف يهودي في نطاق العودة الأولى إلى أرض اسرائيل يقودهم زروبابل، وكان من ذرية الملك داود. وبعد أقل من قرن قاد عزرا الكاتب «العزير» العودة الثانية إلى أرض اسرائيل، وعلى مر القرون الأربعة التالية تمتع اليهود بدرجات من الحكم الذاتي

تحت حكم الفرس 538 – 333 ق.م».

وفي ص 21 «حظي الغزو الفارسي الثاني ابان حكم الساسانيين عام 614م بتأييد اليهود الذين افعمت قلوبهم بالآمال بمجيء المخلص الابدي، وأبدى الفرس شكرهم على هذا الدعم، فمنحوا اليهود حرية الادارة في اورشليم، لكن هذه الفترة لم تدم الا ثلاث سنوات. فبعد ذلك عاد الجيش البيزنطي واحتل المدينة عام 629م وطرد السكان اليهود منها مرة أخرى».

ولما مات قورش تولى الملك بعده احشويرش 485 ق.م، فتزوج من استير اليهودية التي توسطت لقومها وخلاص شعبها من القتل، وردت كيد هامان الوزير الذي حاول اقناع احشويرش بالقضاء عليهم. وحصلت على أوامر من الملك يجيز فيها اليهود الانتقام ممن يكيد لهم. وما زال اليهود منذ 474 ق.م والى يومنا هذا يحتفلون بذكرى ذلك اليوم في الرابع عشر والخامس عشر من مارس كل عام، وهو «عيد البوريم» أو «المجلة»، وهو أحد أعياد اليهود الأربعة وكتاب الاصحاح سفر «استير» يحوى تفاصيل الحادث. ولنا رجعة لاحقة على موضوع يتعلق بذلك. لقد كان ديفيد بن غوريون يردد دائماً تأييداً إلى ما سبق: «كلنا قادمون من بابل».

ثم يأتي حكم الساسانيين، وهم سلالة «أردشير بن بابك» 226 – 241م. ليصل الحكم إلى برويز الذي ارسل إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - عام 627م كتاباً يدعوه إلى الاسلام، حمله اليه الصحابي عبدالله

بن حذافة السهمي - رضي الله عنه - فلم يكن الا أن مزق الكتاب واساء معاملة حامله، واوعز إلى عامله في اليمن يأمره بغزو المدينة ويأتي بالنبي اسيراً. فعاد ابن حذافة وأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بما جرى. فرفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يديه داعياً: «اللهم مزق ملكه كما مزق كتابي». ولم تمض الا اشهر قليلة حتى قتله ابنه شيرويه ليتولى الحكم بعده. وصدقت نبوءة النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما زال حكمهم وتمزقت دولتهم تحت سنابك خيل المسلمين عام 637م – 16هـ، وهروب يزدجرد ثم مقتله.

كان ذلك كلاماً على ماض سحيق، لكن الجذوة لم تخمد واستمرت العلاقات إلى وقت قريب. يذكر دبلوماسيون ذوو اتصال وثيق ان الشاه كان يكرر مقولة: حتى ربيع عام 1976: «لا إيران ولا اسرائيل تريدان ان تكونا محاطتين ومنعزلتين ببحر من العرب»، ص 174 كتاب زوجة سفير في إيران سنثيا هيلمز، و«الى يومنا هذا فان اكبر مركز للبهائيين (الحركة البابية الايرانية) في العالم هو قرب «حيفا» في اسرائيل، وهم يحظون بدعم كبير فيها»، ص 32 كتاب إيران القاجار وبروز رضاخان 1796 – 1925أخذت البهائية تنتشر منذ عشرينات القرن الماضي، خاصة بين يهود ايران، فأرسل الحاخام الأعظم في القدس منشورا يناشدهم ان يظلوا امناء على دينهم.

قصة أستير :

ورجوعاً إلى قصة استير اليهودية، كما اسلفنا ففي بداية اكتوبر المنصرم هاجمت دودة الكترونية المفاعلات الذرية الايرانية التي كانت

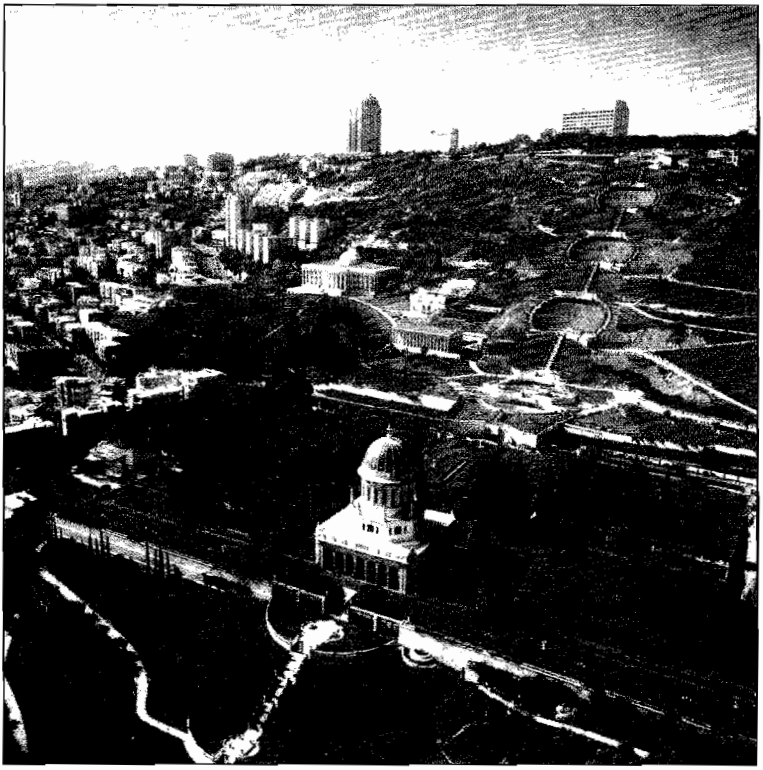

● معبد البهائيين في حيفا

على وشك التشغيل، ومنها مفاعل بوشهر، بهدف تعطيل السباق النووي واستخدمت رمزاً لها كلمة «ميرتوس» MYRTUS وهي اشارة إلى نبات عطري ظهر في قصة استير ESTHER وهذا اسمها الفارسي ويعني «النجمة» وهو ما اطلق على زوجة الملك احشويرش الفارسي، لكن اسمها الحقيقي اليهودي هو «هاداسا» بالعبرية اي نبات «الاس» MYRTLE في التلمود فالاسم الأول ينطوي على مكون سماوي خالد كالدين، اما الثاني فيمثل الأرض، فاتحاد الاسمين اليهودي والوثني هو ثنائية

اصول العبادة، بينما يذكر المعنى رفعة الخلود وسعادة الوجود. ونبات «الاس» أو «الريحان الشامي» يستخرج منه زيوت للتزيين ذات رائحة زكية استعملتها استير في استحمامها لمدة ستة أشهر قبل زواجها من احشويرش حسب وصف ما جاء في التلمود.

وقد نسب مصدر تلك الدودة الالكترونية إلى منظومة تابعة لجهاز الموساد الاسرائيلي، فهل كانت تلك التسمية التوراتية اشارة و«تذكرة» لتاريخ تعاون مشترك، أفرزه الارث الفارسي الذي يُحتضن الان في جمهورية تحمل الاسلام عنواناً لكينونتها؟

المبحث السادس:

خضوع الفرس وانكسارهم لـ«رعـاة الإبـل» كابـوس مزعـج ودائـم

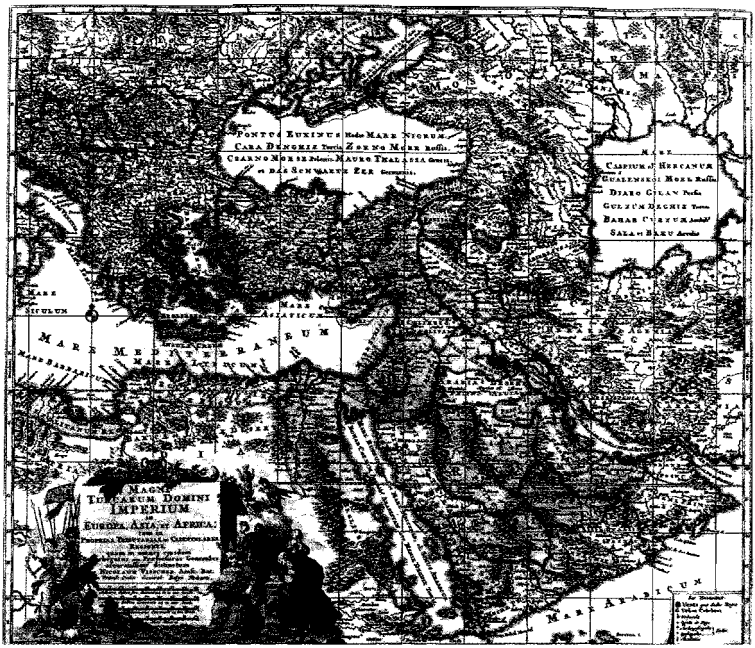

كان ولا يزال التصور عند الفرس ان تخضع امبراطوريتهم بامجادها وعظمتها إلى «رعاة إبل» جاؤوا ليخطفوا تاجها، ويجلسوا على عرشها كابوساً مزعجاً لا ينتهي، وان كانت الرسالة المحمدية قد ادخلتهم إلى فضاء النور بعد نفق مظلم من العبودية والذل، لكن العرق والانتماء يظلان مورداً للشعوبية والشعور بتفوق العنصر، وهي من تركات الحيف والكره. وقد عالج الاسلام هذا الأمر بتعاليم سمحة مستنيرة تدعو إلى المساواة يرسمها القول: «ولا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى ان أكرمكم عند الله اتقاكم». ويدعمها مدح رسول الله (ص) لشخص سلمان الفارسي (رض) كما قال ابو هريرة عنه «وضع رسول

الله يـده على سلمان ثم قال: لو كان الايمان عند الثريا لناله رجـال من هؤلاء» صحيح البخاري 4897. وذهب إلى أبعد من هـذا حينما قال: «سلمان من أهـل البيت».

وفي مجال سد الثغرات واقـالة العثرات بدلاً من اتهام النوايـا وحجب الحسنات والابقاء على ما يسيء ثم الحد من الانتقاد بغلظـة وشدة اسوة بقـول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، ندرج هنا ما قاله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) لرجل يشتم الفرس: «لا تقل ذلك، فان لأهل فارس عقولاً ملكوا فيها الناس»، وهو الذي سمع مشورة سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قائلا: «مهلا يا أمير المؤمنين، فاني سمعت رسول الله يقول: ارحموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر» واكمل: ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة. فقال عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن؟ قال علي: يقومن ومهما بلغ الثمن يقوم به من يختارهن. فقومن واخذن علي فزوج شاه زنان حفيدة كسرى إلى الحسين بن علي واختها إلى عبدالله بن عمر والثالثة إلى محمد بن ابي بكر.

روايات وأساطير:

وفي مقابل ذلك ترى عالما يعج بالاوهام وتختلط فيه الروايات بالاساطير وتفوح منه روائح الغلو المقيت وانفاس العتو البغيض، مشفوعة بتزوير ظاهر يكشف عن نية مبيتة معرقلة في لغة ملتبسة ملبسة قابلة للتأويل، وان كان بعضهم يعش في احضان من أووه وامنوه من العرب

وها هو أبو نواس يشمت منوهاً انهى عروش بني ساسان:

عـــاج الشـــقي علـى رســـم يسائلـــه
وعجـــت اســـأل عـــن خمـــارة البلـــد
يبكـي عـلـى طلل الماضيـين مـن أسـد
لا درّ درك قـــل لـــي مـــن بنـــو اســـد
ومـــن تميـــم ومـــن قيـــس ولفهمـــا
ليس الاعـاريـب عنـد اللـه من أحـد

ويتبعه مهيار الديلمي ومن أرضه انطلقت الفتنة بقوله:

قـومـي استولـوا عـلـى الدهـــر فتـــى
ومشـــــوا فـــــوق رؤوس الحقـــــبِ
عـممـــــوا بـالشمـــس هـــامـاتـهـم
وبنـــــوا ابـيـــاتـــهـم بـالشـــهـبِ
وابـــي كســـرى عـــلا ايـــوانـــه
ايـــن فـــي الـنـــاس اب مثـــل ابـي

انهـا نزعـة الشعوبيـة التي ارزى فيها من نظـرة استعلائيـة نحـو العـرب وتمجيـد الفـرس.

وعلى الرغم من كل ذلك فأكبر شارع وأشهره وأجمله في بغداد أطلق عليه اسم أبو نواس معززاً بتمثاله.

فإذا اقيم الفردوسي تلبية لنداء العرق, فإقامته لابي نواس كانت لأبداعه في الشعر، على الرغم من عنصريته وهي لفتة لا تمييز فيها تحسب للعرب.

العجم والعرب :

اسمع من يقول وماذا عن عصبية العرب وتصنيفهم للآخرين بالعجم؟

فالجواب هو في قواميس اللغة، وهو ليس استنباطاً عربياً فقد بدأه اليونانيون القدماء قبل آلاف السنين، فلغتهم الشائعة آنذاك هي الهيلينية التي يتكلمها كل من ولد على اراضيها او عاش فيها. اما من لا يعرفها فيطلق عليهم مسمى باربروس BARBAROS ومعناها من لا يتكلم اللغة. وعلى مرور الزمن تغير معناها إلى «البربرية» من دون قصد الاساءة من قبل مستنبطيها ونقلها الرومان لجهلهم بالمعنى الاصلي إلى «البربرية» بمفهومها الحالي أي «الوحشية». (المرجع منشورات المتحف البريطاني بالاشتراك مع جريدة الاوبزيرفر بعنوان «العالم القديم» 7 نوفمبر 2010). وهو المصير نفسه الذي مرت به لغة العرب لاتساع امبراطوريتهم، فمن لا يتكلم العربية بطلاقة يطلق على اسلوب كلامه «بالعجمة» وفي محكم كتابه تعالى الآية الكريمة التي تقول: «ولو نزلناه على بعض الأعجمين» سورة الشعراء الآية 198.

فكلام الله في كتابه لا يذم مخلوقاتــه بل كان القصــد ان القرآن

انزل بلغة العرب «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» سورة يوسف الآية 2، هو وصف لمن لا يعرف معناه من آخرون دخلوا الإسلام. وفي مختار الصحاح ص 415 – 416 تفسير لذلك: «من لا يستطيع الكلام حتى وان كان عربياً. واستعجم عليه الكلام استبهم». وكان بعض جيش الشام من العرب في بداية الدولة الأموية لا يستطاع فهم لغتهم لاحتكاكهم بالرومان الذين حكموا بلادهم. فكلمة «اعجمي» و«عجمي» و«عجم» ليست مفردات ذم، ويسري عليها ما سرى من سوء الفهم «كالبربرية» في لغة اليونان القديمة. فلا جناح على اللغة هنا وليس من الانصاف الزج بها. والجرم كله يقع على من يستعملها عن جهل للاساءة. «وان كل نفس لما عليها حافظ». ولكن «هل رأيت شفاء جاء من سقم».

وما دمنا في معرض الكلام عن اللغة فحري بنا ان نذكر الحكمة القائلة: «من عرف لغة قوم أمن شرهم». وقد وجدنا في مقال للمفكر الاسلامي السيد هاني فحص الذي عاصر الثورة الاسلامية في إيران وشارك في احداثها منذ بدايتها عنوانه «ايران في لغتها» نشرته جريدة الشرق الاوسط في 5 سبتمبر 2009، وانقله بتصرف عسى ألا يخل بالمقصد: «كنت اتمرن على استعمال اللغة الفارسية اركب جملا مفيدة وغير مفيدة، فنبهني صاحبي إلى ان اللغة الفارسية ليست سهلة بالصورة التي يتكلم بها العرب بسبب ما يتصورونه من كثرة المفردات العربية فيها. فالمفردة العربية تفقد قليلا أو كثيراً من ذاتيتها الدلالية، وتستقر على نصاب مختلف، وان الفارسية بالنسبة إلى غير أهلها هي

كالفارسي في غير أهله. لا تصل بالسرعة المعتادة ومن الصعب توقع نهايتها حتى القريبة ولا بد من انتظار اكتمال النص حتى يُفهم. وهي لغة تتقن الحجب والتبطين، بنيتها النحوية مختلفة عن اللغات المعروفة. فالجملة فيها تبدأ بالاقل اهمية أي تبدأ «بالفضلة» وتنتهي «بالعُمدة» فتحيرك. ومثال على ذلك ان نصاً من 32 مفردة فالأولى منه مبتدأ وضع جانبا لينتقل النص إلى مكان آخر وبعد طول صبر يأتيك الخبر في جملة فعليه في المفردتين الأخيرتين 31 و32. وإلى ان تفهم يكون نفسك قد انقطع وصبرك شارف على النفاد. وإذا ما تورطت في توقع نهاية دلالية للنص متعجلا اعتراك الندم، لأنك ذهبت إلى مكان احتمالي بينما النص ذاهب إلى مكان آخر. وهكذا يكون المتكلم يلعب معك او عليك ولا تلومن الا نفسك على قلة صبرك وغفلتك. فاللغة الفارسية لغة مداورة. فمن عادة الإيراني إذا ما أحبك وهو يحب بمقدار ويكره بمقدار ويدقق في حساب الحب والكره، فإذا ما احبك ورغب ان تراه ثانية يقول: «أحب ان ازورك» ويقصد في ذلك «ان تزوره» وهي اتقان الفارسي الالتفاف على المعنى تحسيناً أو تقبيحاً، ويعطي الفارسي قيمة للسعي والكسب فيقول مثلا: «اشحذ حتى لا تحتاج للناس». فتشعر ان اللغة الفارسية بها من الفقر في المفردات ولكنها تتدبر أمرها اعتماداً على الافعال المركبة التي تشمل 60% منها.

وهنا تبلغ حيرتك وضياعك مداهما إلا ان تتزوج من إيرانية فتتعود على فهم اسرار لغتها من سر لا ينكشف وقد تخسر نفسك.

إذا ماذا تفعل؟ وانت آت من أصل صحراوي يقوم على المباشرة والمكاشفة وعلى لغة تسقط اذا ما طالت المسافة في جملها بين الصفة والموصوف، وبين المرجع والضمير، ويجوز فيها الاعراب على المجاورة فتقول: «حُجر ضبٍ خربٍ».

وعادة يضيف العربي جاره إلى أهله فيكون للجار ما للأهل عليه بينما الجار في الفارسية يدعى «همسايه» ومعناها «شريك الظل» ربما اعتبرت ذلك عيباً وأنت حر في ذلك. «ان اللغة مرآة ولكل مرآته». انتهى كلام السيد فحص.

اللغة والكلام :

يأتي هنا كلام زوجة اجنبية (أميركية) اقترنت بإيراني وهي آن سنكلير مهدوي لتعطي انطباعها عن اللغة فتقول: «تعدى الحماس التعليق، واصبحت المحادثة مسابقة لكن عدم معرفتي تجعل رغبتهم لا تقاوم في المبالغة بالقول أكثر فأكثر ان خاصية اللغة الفارسية هي المخاتلة فعلى المتلقي الحذر فيركب الخيال العقل لتصبح المبالغة مثيرة ولا يقف أمامها حتى الذي قدت ارادته من صخر، فيجعل العقل يغادر حدود الواقع بمزيد من الاستعارات والابتسامات والتلميحات الدقيقة والامثال القديمة، لتضيف اجنحة إلى أكثر الأمور بلادة وتسحب الحديث إلى افق متعدد الألوان لا يستطيع المعقول أو الواقع الاقتراب من ساحلها».

قد نصل هنا إلى قناعة بأن اللغة والكلام عندهم يحتاجان إلى

نفس طـويل وفهم عميق. والمشاهدات اليومية هي خيـر شاهد وهو مـا نراه في المساومـة بالتعـامل والمناورة بطول اناة وجرح ومداواة وصبر نسجة السجاد، فهم في نهجهم هذا مثل من يريد ذبح البعير بقطنه.

فلا بد لنا بعد ذلك ان نعرج في مسعانا للوقوف على تحولات كونت بصمات مميزة بصفاتها. لعلها تردف فهمنا لاستيعاب الخصوصية الفارسية أرضاً وبشراً، خريطة وطموحاً بفكرها وشخصها لغتها وهويتها السردية واحتباسها الثقافي الذي بدوره جعل من الممكن ابراز مواقف تكشف لمن يستعرضها إلى وصفها بالعنصرية والعدمية أو قد تفوقهما أحياناً.

عندما نتصفح ما كتبه داريوش شايغان» استاذ الدراسات والفلسفة القديمة والمقارنة» في جامعة طهران سابقا، ومدير «المركز الإيراني لدراسة الحضارات» وما طرحه في كتابه «أوهام الهوية» ص 142 – 143، بمؤلف يحمل بنفس العنوان نشره عام 1992 في باريس يقول فيه: «ان الشيزوفرينيا (انفصام الشخصية) الثقافية وحلم العظمة ببناء الامبرطورية على طراز ساساني سواء بواسطة شاهنشاه علماني ام رجل دين مؤدلج بالشيعية هما كما الجنة ونقيضها «جنة الحضارة الأولى على الأرض وجنة يوم الحساب والبعث في السماء»، ربما يكونان خطابين مختلفين لكنهما يمثلان عقليتين متجاورتين في مكان واحد: إيران الامبراطورية كما في «شاهنامه» «كتاب الملوك»، وإيران المعمدة بدماء الشهادة «الفقه الشيعي لكنهما متشابهتان بأسلوب واحد هو غلو

شعب لا يكل عن ان تكون أحلامه أكبر من مقدرته».

قد يقول ناقد ان هذا رأي شخصي لكنه يمثل الحقيقة العارية كما نراها وان اختلفت التحليلات. وهناك مثل يقول: «ليس ملزماً عليك بأن تأكل ثوراً بأكمله لتقرر انه كان لحماً».

وفي الكتاب نفسه بموقعاً اخر وبفصل عنوانه «ياس الحنين» ص 183 يقول: «ان الفارسي يعتبر نفسه الوريث الشرعي لقورش ودارا، وبالتالي يعتبر نفسه متفوقا على جيرانه يشهد ذلك صلفه التاريخي وعبادته لكبار الملوك والسلالات».

ان هذه الملاحظة تفسر وبجلاء ان يحاط مبنى وزارة الخارجية في طهران بتماثيل لملوك الفرس القدماء في دولة اسلامية.

الشخصية المتقلبة :

تنتاب الدارس مشاعر متناقضة حيال تحليل وتفسير الشخصية الدرامية المتقلبة والمشاعر التي تصل إلى النرجسية المدفوعة بالاعتزاز اللا متناهي من الفخر، قد يصل ذلك الاعجاب إلى درجة التقديس.

ففي إيران مثلاً تصل تلك المراتب إلى شعراء، واخذنا فردوسي مثالا لذلك ومدى تأثير افكاره السلطوية المنغلقة إلى يومنا هذا. لتصبح أبيات شاهنامه مسنداً يستعين بمفرداته حتى القروي في موسم تلقيح

الأغنام ليصل إلى غايته أو حينما يريد أن يركب الحافلة إلى المدينة للتبضع أو قضاء حاجته. لكن هناك من تفّوق عليه بدرجات لم تصب أي شاعر آخر مثل شعبيته، حيث استقر في حنايا العاطفة والوجدان الفارسي، وان كان أشد انفتاحاً على العالم. فدواوينه لا يخلو منها بيت ايراني، وشعره هو القول الفصل وغزلياته على كل لسان، ذلك هو حافظ الشيرازي، حفظ القرآن الكريم غيباً وهو صبي فأصبح ذلك اسمه وعمل خبازاً – خمير كير – ليعيل اسرته، بعد ان اختل معاشهم واضطربت أحوالهم. ومن الروايات الشائعة عنه «ان الامام علي اطعمه طعاماً سماوياً ولقنه الشعر واخبره أنه سيكون شاعراً ذا شأن»، وهذا ما حصل. فغادا ديوان شعره ملجاً لمن يؤمن بالفأل ويكره الطِيّرةَ بين دفتيه فراج رواجاً عظيماً، فكلما حلت هناك ازمة أو عارض، فإن ديوان الشعر يفتح بغير تعمد فيكون الفأل المأخوذ من أبياته يمنح السبيل ويصف المصير إلى السلامة. وهذا الأمر عادة فارسية وان عارضتها آراء الفقهاء، فما زالت مقصد الاغلبية إلى يومنا هذا. وكان الشاه محمد رضا مأخوذاً بهذا السحر ويلجأ إليه دائماً كما أكده الكثير من معارفه. ويذكر التاريخ أن من ملوك إيران من كان يستخير «ديوان حافظ» الشاه اسماعيل وطهماسب وعباس الصفوي، وفتح علي خان. وقد بلغت الشهرة حتى إن امبراطور الهند جهانكير قد دوّن لمناسبات اخذ فيها فأله من «ديوان حافظ» بخط يده على نسخة اهديت إلى مكتبة «بانجيپور» في الهند.

لا ندري إن كان مفعول ذلك حقيقة أم اعتقاداًفجربناه، وجاء اختيارنا إلى هذين البيتين ندرجهما بالفارسية :

انقـلاب زمـانـه عجـب مداركـه جـرخ
ازيـن فسانـه هـزاران هـزار دارد يـاد
قـدح بشـرط كَـير زانكـه تـركيبـتن
زكاسـه سرجمشيد وبهمنست وقبـاد

ومعناهما:

ليس كل تغييـر تجلبـه الأيـام يثير الدهشـة، لأن الفلك دوار، وآلاف الأرواح مثـل ذلـك قـد مـرت.

القـدح الذي بـين أطـراف اصابعي لا يسمع أصوات الملوك تنطـق من خـلال هـذا الطـين.[1]

ان تراب قاباد وبهمن وجمشيد ينادي: «ترفقي ايتها الشفاه بنا».

هل تلك الأبيات هي حكمة أم مكر خيال فارسي، الذي قال عنه ستالين: «أنتم الفرس طالما خدعتمونا، لكني احذركم بأنه لا يوجد امل بامكانيتكم لحل المشاكل»، قال ذلك عند مقابلته رئيس الوزراء الحذق احمد قوام، الذي وصفه احد منافسيه: «ان اقدامه تعرف ما لا تحلم به عقولنا». وكان قد اسس حزباً سياسياً اطلق عليه الحزب الديموقراطي يحمل اسم الأميركي نفسه، توقعاً منه بأن الولايات المتحدة ستكون القوة العظمى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهو ما نصح به محمد رضا شاه «بأن يكون تحت نظرها» أمير طاهري (ص 94). ولما تعقدت الأمور بين روسيا وإيران عام 1944، وُجد الحل عندما اجتمعت شقيقة

الشاه وتوأمه اشرف بهلوي مع ستالين، وكان اللقاء مقرراً بنصف ساعة، لأن على الجدول الأعمال موعداً محدداً مع المارشال تيتو. لكن اللقاء مع أشرف استمر لمدة ساعتين ونصف الساعة، وتيتو بالانتظار، وكان اجتماعاً ناجحاً لأن ستالين دعا الأميرة لحضور احتفالات يوم الجمهوريات السوفيتية، وكانت تقف بجانبه خلال فترة الاستعراض العسكري وأهداها معطفاً فاخراً من الفراء الروسي نفس المصدر (ص 101) إن هذا المكر هو جزء من سيكولوجية السياسة الفارسية، ومنذ احتكاكهم بالعرب بعد الفتح الاسلامي مباشرة.

يروي الطبري في تاريخه عن حوادث يوم الجسر وكانت من المعارك الفاصلة :

«ان الهرمزان الذي اعتصم في قلعة بمدينة سوس، ثم استسلم بعد أن فاوضه ابوموسى الاشعري، على أن ينظر الخليفة في أمره. فلما جيء به إلى مجلس عمر، وانشأ عمر يقرعه على نقضه العهد مرة بعد مرة. فطلب ماء فأتى به، فقال: اني خائف أن اقتل وأنا أشرب الماء. فقال عمر: لا بأس عليك فلا تقتل حتى تشرب. حينئذ اراق الهرمزان الماء. وقال : انما اردت أن استأمن. فقال له عمر: اني لقاتلك. فقال: امنتني، فقال عمر: كذبت. فقال انس بن مالك وكان حاضراً: صدق يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر على الهرمزان يقول له: لقد خدعتني والله لا انخدع إلا لمسلم. فأسلم الهرمزان ودخل الاسلام».

وكان أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة ابن شعبة من الجمع الذي دخل الاسلام مع الهرمزان.

وعملته الخبيثة معروفة، فكانت قمة المكر. وفي زماننا هذا نجد هذه الخلفية لم تغادر أرضها، لان أقوى الحاسات عند الفرس هي عدم الوثوق بالالتزام، فهو زواج الشك والخيال، الذي لا يمكن ان يكون النجاح مرافقاً لوليده. فالإيراني يجلس أمام قدح الشاي لمدة ساعات لا يحرك ساكناً، لكن تفكيره يعمل بجهد اضافي شاغلا باله حتى الثمالة بابتداع سبل وهي ما يطلق عليها تعبير «ليبقى الظهر دافئاً» فيقلب أموراً تقلل من قدرة أعدائه وتمكينهم منه باخفاء أكثر مما يستطيع حمله من أشياء ليبعد دائينه أو يحاول الاخلال بوعده والإفلات من إلتزامه. ويذكر المستشرق الألماني باون هورن في كتاب «الأدب الفارسي»: «أن السذاجة الظاهرة مع المكر هي صفة بارزة للروح الفارسية».

وينصح محمد مهدوي زوجته الأميركية إذا ما احلت في إيران :-

- انه حينما يطأ أرض إيران فإنه ينسى سنين الغربة الطويلة ويرجع إلى عرقه القديم وانها ستظل أجنبية (فرنجية) مهما حاولت ان تتقرب إلى كل شيء في إيران.

- وان في إيران من الأوفق أن تنسى كل ما يحمله المنطق من قيمة معترف بها، سواء على مستوى الكون أو المطلق، لأنه يضيف الإيراني

بعدا رابعا *FOURTH DIMENSION إلى شخصية.

* البعد الرابع هو الوقت الذي يضاف إلى نظام يحدد نقطة أو موقعاً معيناً في حساب علم اللا معقول. لأن الابعاد الثلاثة التي يعترف فيها علماء الرياضيات والمتعارف عليها علمياً، هي الطول والعرض والسماكة. اما البعد الرابع فهو الخيال المحض الذي لا يكون قابلاً للتصديق، وهو وفق اعتقاد مهدوي ما تفردت به الشخصية الإيرانية.

وقد اضاف «داريوش شايغان» استاذ الدراسات المقارنه والفلسفة القديمة السالف ذكر في كتابه «النفس المبتورة» قبسات جديرة بالوقوف عليها والتأمل في تحليلاتها، ونوجز منها اضاءات نشرت تحت العناوين التاليه على ص184-167 ومنها:-

المدن السبع عشر

«كانت إيران متراجعه على صعيد نفوذ الأفكار الحديثة لم تعرف التفوق العسكري الغربي الا في غضون الحرب الايرانية – الروسية، التي انتهت بهزيمة فادحه، ادت إلى توقيع اتفاقية اذعانية تخلت بموجبها عن قسم كبير من أراضيها الواقعة شمال نهر اراكس عام 1828. هناك هزائم تاريخية تضع مصير شعب، فلا ينهض منها ابدا، وتضل جراحها المشحونه بالذكريات الاليمة حية في الذاكرة الجماعية. ان التنازل عن تلك المدن السبع عشر في القوقاز التي يتحدث عنها الفرس غالباً لا تزال

تحمل الطعم المرة لخسارة لا تعوض».

عبقرية الحسرة

«اذا كان شعباً امبرطورياً. فأنه يحتفظ بـ«الشدق الخشبي» لسكرات ماضيه. مصاباً بجنون العظمه في مشاريعه ولا يملك قط الوسائل لتنفيذها فيضل متناقضاً مع نفسه. انه في آن نقدي تجاه نفسه ومتساهلاً تجاه عيوبه، يتهم ذاته ويسامحها في وقت واحد. انه يزدري غزاته، لكنه يبذل قصراه ليتساوى معهم. يحتقر العربي ويكرهه، ويكرس كل عبقريته لاغناء فكره وثقافته وفوق ذلك، العربي يعلمه الدرس ويعطيه العبرة. بأسم الاسلام الفاتح المحتقر جداً لدى الفارسي، نراه يسعى إلى تحقيق قوميته بالمقلوب».

الشوفينية المتعصبة

«في الصميم لا يهتم بغير بلاده وتاريخه وشعرائه قلما يهتم بمعرفتهم حق المعرفة فمجرد وجودهم يشكل ضمانه لتبرير اعجابه بهم، شوفيني متعصب حتى العصاب، لا يعجب بالأمام إلا لانه كان صهر فارس (ان زوجة الأمام الحسين كانت بنت يزدجر الثالث آخر ملوك السلاله الساسانيه كما كانت ابنة دارا «داريوس» آخر ملوك السلاله الاخمنية زوجة للاسكندر المقدوني). ولا يهتم بالافلاطون إلا لانه كان تلميذ زارادشت، ولا يحترم النبي إلا لان صاحبه كان سلمان الفارسي ولا يقدر المسيح - عن بعض القوميين الحديثين- إلا لانه كان تجسيداً للميثرا MITHRA. نزاع إلى الانوية المركزية يتراجع بسهولة نحو القضايا

الاساسية تراوده الاحلام نفسها وتخطر على فكرة الحلول ذاتها، لكن جنون العظمة هذا يتضاعف بتعصب كبير. انه مهوس ممزق بين الماساة والهزل ينتقل من الأول إلى الثاني بين ضحك وبكاء. وحينيرحل اخطاء قادته انما يكرهم لانهم يشهونه كثيراً.

وينتقل من السلبية الأكثر لينا إلى التألق والسقوط والآشد تهديماً، لايناسبه الا في ممارسة فن معين من الانتهازية والاستنساب ذلك لانه مميز أيضاً في فن السباحة فوق الحزن العميق. لا يتحرك إلا بمفاجئات وبقفزات فجائية متكررة ومن هنا تضيع الحوادث المحتمة في النماء والاسف الشديد على المناسبات والفرص الضائعه».

المبحث السابع:

محمد رضا بهلوي:

الخليج حبل وريد إيران

كان الشاه يعتقد أن القدرة المنطقية لتكون إيران قادرة على أن تحتل موقعها كقوة عالمية لابد لها أن تكون قوة إقليمية أولا. كانت هذه احلامه حينما ابتدأ بحملة محمومة في التسلح، في بداية السبعينات، وتحديداً عندما قفزت أسعار النفط بصورة خيالية بعد هزيمة عام 1967.

ولكنه نسي ان هذا البلد الكبير مساحة والذي ينطوي على مليون وستمائة وخمسة واربعين كيلومتراً مربعاً لا يوجد فيه قبل ثلاثين سنة سوى تسعين كيلومتراً من الطرق المعبدة «سنثياهيلمز» (زوجة السفير الأميركي في إيران) ص157، ويفتقر إلى التعليم والتطبيب والتغذية والصحة العامة وفرص العمل، مما أدى إلى موجات من هجرة مواطنيه إلى اقطار الخليج العربية، ومنها الكويت ابتداء من عشرينات القرن المنصرم. ويذكر أمير طاهري في كتابه «الحياة غير المعروفة للشاه» ص48:- ان اعداد المهاجرين بلغت أكثر من مائتين وخمسين ألف نسمة»، تلك الهجرة التي كانت من ضمن أسباب تداعيات أحداث عام 38 ـ 1939في الكويت ودبي.

أما بعد هزيمة 1967 التي مني بها العرب، رتب الشاه أولوياته السياسية بالنسبة إلى استحواذ الخليج على ضوئها، فعند اعلان بريطانيا عن نيتها الانسحاب من الخليج عام 1968 كان السيناريو الايراني للمطالبة بحقوقه التاريخية!! في الخليج جاهزاً ومنها بالبحرين والجزر الاماراتية. وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات إيرانية تحارب

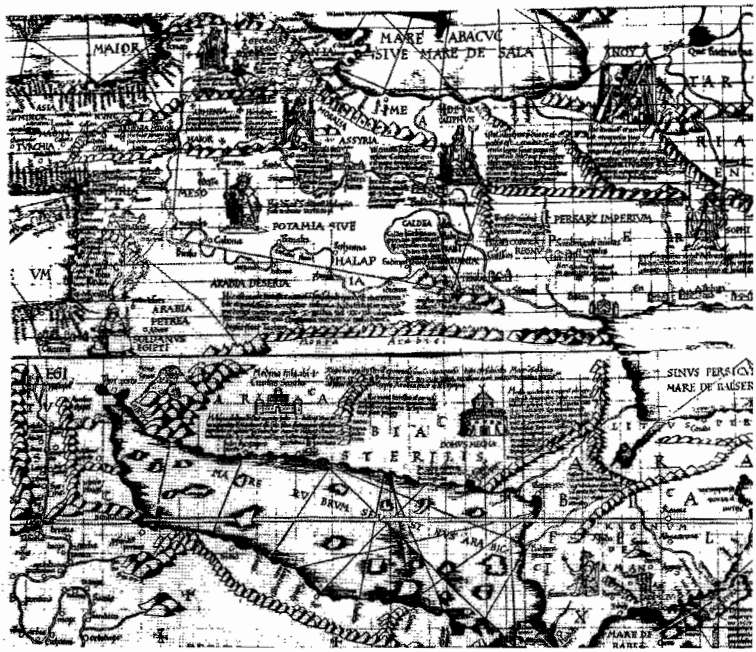

ضد ثـوار ظفـار بلـغ عـددها بـين 4 و5 آلاف جندي مع غطـاء جـوي بين عـامي 71 و1972 لتجـد موطئ قـدم.

وعلى الرغم من ذلك فأن الشاه قد صرح في زيارة له إلى الهند في 4 يناير 1969، بأن إيران لن تستعمل القوة لارغام الشعب البحريني على الانضمام إلى إيران، وانه يترك القرار إلى نتيجة استقصاء الأمم المتحدة في تقرير مصير البحرين. ربما ثقة منه بان الأمور ستكون لمصلحته فتحركت الأمم المتحدة وبريطانيا بسرعة لانهاء الموضوع، والذي اعلن في 11 مايو 1970 ووافق مجلس الأمن عليه بالاجماع على استقلال

البحرين، استجابة لرغبة الاغلبية من سكانها. وقد وافق مجلس النواب الإيراني بعد معارضة ضئيلة في 14 منه على اعتماد قرار الأمم المتحدة واسقاط الحق في المطالبة. جاء هذا القرار مكملا لتسويات واتفاقيات ثنائية منفصلة بين كل من الكويت يناير 1968 والمملكة العربية السعودية اغسطس 1968 وقطر 1969 على تقسيم الجرف القاري مع ايران، وفي الوقت نفسه ابتدأ مشروع اتحاد الامارات الساحل المتصالحة، والذي لاقى معارضة من إيران وما ان حل عام 1970 حتى خفت حدتها، على ضوء موافقة تمت مع بريطانيا خلف الكواليس لغض النظر امام مطالبة إيران بالجزر العربية الثلاث. ليس هذا وحسب فقد روجت بريطانيا في اجتماعات حلف الناتو في 31 ديسمبر 1970: بـ«إن إيران هي الدولة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها عسكرياً». وأعربت عن نيتها انها سوف تقوم بتقديم الجزر العربية لها. ولم تظهر إيران الجدية في الموضوع الا بعد اتفاق الانتاج النفطي مع الدول العربية المنتجة له. عندها بدأت الامور في التحسن حتى مع مصر، ولكنها ساءت بشكل ملحوظ مع العراق بخصوص شط العرب، مما ادى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران والعراق وبروز الاحتكاكات الحدودية بينهما، خاصة بعد توقيع الاتفاقية السوفيتية ـ العراقية عام 1972 كما جاء ذكره سابقاً.

أحـــلام الشـــاه :

كان الشاه يعاني تفاقم الهاجس العسكري تجاه العراق نتيجة لتصعيد المشاكل الحدودية، فاتجه إلى الولايات المتحدة بادعاء حاجته الملحة للسلاح لإيقاف المد الشيوعي والنفوذ السوفيتي في المنطقة ولتأمين

طرق نقل النفط نتيجة الفراغ الذي تركه الانسحاب البريطاني من الخليج الذي يوفر ما يعادل 60% من حاجة الدول الصناعية الكبرى، وعند زيارة نيكسون إيران عام 1972، والذي كانت تربطه علاقة حميمة مع الشاه ادراكاً وتمشياً بنصيحة احمد قوام رئيس الوزراء الأسبق القائلة: «أدر ظهرك للإنكليز، وواجه السوفيت وصافح الأميركان».

وعن ذلك تذكر زوجة السفير الاميركي في طهران تلك الفترة في مذكراتها ص38: «كانت من افكار نيكسون دعم القوى العسكرية الاقليمية المؤيدة للولايات المتحدة بالسلاح بدلا من توريط العنصر البشري الاميركي في حروب تلك المنطقة». فتدفق التجهيز والتدريب العسكري بدافع الهاجس العدائي القابع ضمن النظام العراقي والاسناد السوفيتي له، وكانت الحرب الباردة بين القطبين آنذاك في اشدها، وسيل الأسلحة السوفيتية المتطورة يتدفق على العراق بتوارد ملحوظ، اضف إلى ذلك مجريات المتغيرات الجيوسياسية مثل التزام إيران حماية حدودها الشرقية نتيجة الحرب الاهلية الباكستانية وانفصال اقليمها الشرقي (بنغلادش) لاحقا وازاحة الملكية في أفغانستان ونفي ملكها، وتوسع الإيديولوجية الشيوعية في المنطقة وضمنها إيران المتمثلةبنشاط حزب تودة الشيوعي.

تعترف زوجة السفير الاميركي عن عملية بيع السلاح الاميركي إلى إيران: «بأنها صفقات مفرطة بالفحش وانها شعرت بأن دور الولايات المتحدة في كل هذا قد هبط إلى أدنى مستواه الاخلاقي». وتطبق على

سبيل المثال ان اسعار الاسلحة قد تضاعفت حوالي ثلاث مرات بين عامي 1974 و1976، فكلفة مدمرة بحرية من طراز سوبروان ارتفعت من مائة وعشرين مليون دولار إلى ثلاثمائة وثمانية وثلاثين مليون دولار (بلغت قطع الاسطول البحري الايراني تسعا وعشرين مدمرة وسفينة، اضافة إلى زوارق طوربيد وستة عشر حوامة (هوفركرافت)، اضافة إلى حوالي عشرين طائرة هليكوبتر).

كما يذكر أسد الله علم ص 180 ان قائمة المعدات العسكرية المطلوبة هي كالآتي:-

300 دبابة شيفتن
700 دبابة برامز
75 طائرة فانتوم

ومثلها من نوع ميراج، وهي ما أخبرني الشاه بأنه قد اشتراها.

فبلغت نسبة نفقات التسلح حوالي 11% من مجموع الدخل القومي، يقابلها مثلا اقل من 4% في فرنسا وحتى العراق المهموم بتلك السياسة، فكان انفاقه 8% هي في ذاتها تلك الارقام الخيالية التي حرمت إيران من مشاريع واحتياجات كانت في اشد الحاجة اليها في العمل لرفع مستوى المعيشة وتركيز الصرف على مشاريع البنية التحتية والتعليم والصحة والزراعة والصناعة وما شابه ذلك.

حـدود الأمـن الإيـراني:

حينها أضحت الموانئ مشغولة باستقبال شحنات الاسلحة على اختلاف انواعها حارمة الشعب من ابسط احتياجاته. فقد بلغت به الحماسة ليطلق على الخليج انه «حبل وريد ايران» في مقابلة له مع جريدة الديلي تلغراف البريطانية 8 فبراير 1974.

وما ان تم اتفاق الجزائر عام 1975 بين إيران والعراق وبدأ تحسن العلاقات بينهما وانتهاء النزاع الحدودي المزمن حتى اتجه الشاه بطموحه نحو المحيط الهندي بحجة حماية الملاحة فيه، وتعدت الأمور إلى الدخول في مغامرات في شرق افريقيا مثلا، في مساعدة الصومال ضد اثيوبيا بعد عزل هيلاسيلاسي وبناء قاعدة بحرية ايرانية في جزر الموريشيوس مزاحمة منه على الرغم من تعهد الدول الكبرى حماية المحيط الهندي،

ونسوق هنا مثالاً واضحاً على ذلك خطابه في يوم البحرية بجزيرة خرج 4 نوفمبر 1972 يقول فيه:

«يجب ان اعترف بانه قبل ثلاثة أو اربعة اعوام، كان همي هو الدفاع عن الخليج الفارسي لان معظم ثروتنا تأتي عن طريق بندر عباس ومضيق هرمز، لهذا كنا نفكر في حماية هذه الثروة وحرية الحركة فيها إلى العالم، ولكن مجريات الامور جعلتنا نفكر في بحر عمان والشواطئ الايرانية الواقعة عليه، ثم ان تعاقب الاحداث جعلتنا لا نقف عند بحر عمان، بل المحيط الهندي الذي لا يعترف بالحدود، والآن تفكيرنا لا ينصب

على حماية عبادان وخسرواباد أو بوشهر أو حتى بندر عباس وهرمزاو حماية جزيرة جاسك، لان أمن إيران لا يمكن تحديده بالكيلومترات، واي شخص له اطلاع بالجغرافية والوضع الاستراتيجي وقابلية توغل القوات الجوية والبحرية يعرف المدى، الذي يمكن ان تصل اليه من شاه بهار (القاعدة البحرية على اقصى الحدود الايرانية – الباكستانية)». جون مارلو التنازع العربي – الفارسي في الخليج.

كان الشاه بافكاره هذه قد سخّر السياسة والدبلوماسية لتحقيق احلام عسكرية وطموحات توسعية وينفرد يأخذ قرارات عسكرية من دون الرجوع إلى الحكومة أو المجلس خاصة عندما حقق الارتفاع الكبير لاسعار النفط بعد عام 1973 مما أثر في دفعه إلى الحكم المطلق، فأصبح لا يريد الا سماع المديح من الجميع رؤساءً وزواراً وصحافةً، ولا يكف عن توجيه الانتقاد حتى إلى الدول المتقدمة، كالولايات المتحدة واوروبا.

وكم كان شعور الشاه متأججاً بالزهو والفخر حينما تناول نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة نلسون روكفلر في خطاب ألقاه عند زيارته إيران في 23 مارس 1975، ضمنها رحلة لساحل الخليج وجزيرة كيش ومقارنته الشاه بالاسكندر المقدوني ثلاث مرات في خطابه. وعن زياره لاعضاء الكونغرس الاميركي لطهران في 25 مارس 1975 يذكراسدالله علم (مذكرات اسدالله علم ص 476): «كيف انهم طالبوا إيران بان تعيرهم الشاه لحكم الولايات المتحدة لمدة سنتين ليعلمهم كيف

تدار الأمور في اميركا عندما شاهدوا الانجازات التي قام بها صاحب الجلالة الامبراطورية، - وفق تعبيره - في إيران».

التوسع والجزر:

ان مظاهر هذا التوسع الإيراني تتكشف بوضوح فيما يتعلق بالجزر التابعة لها آنذاك، على ضوء الدليل السياحي الرسمي لإيران عام 1935، والذي يعددها كالتالي :

هرمز، لاراك، جشم، هنجام، فرور، غيص (كيش)، هندرابي، شيخ حسيب جبريني، خرج، خرجو.

وكانت قبلها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد حاولت الدولة القاجارية احتلال جزر هنجام ولارك وجشم ولم تفلح. ولكن التعدد الأول قد ادرجها بالتبعية ومثلها في عام 1925 احتلت عربستان بأكملها. وبقي الأمر على ما هو عليه، وما ان اعلنت بريطانيا انسحابها من الخليج عام 1968 حتى بدأ في تنفيذ خطة وضعها الشاه قبل ست سنوات من تاريخه، بان يوطن اعداداً من الإيرانيين في بعض الجزر العربية على اساس انها جزر فارسية تاريخيا، وان البريطانيين اعطوها للعرب، علماً بانه ادعاء زائف، وسبق ان بينا الاسباب. أمام ذلك بادرت بريطانيا بارسال اشارات وتلميحات بانها سوف تمدد بقاءها في الخليج عشرين سنة اخرى، فعلقت تلك الخطة الايرانية إلى حين.

يقول اسدالله علم وزير البلاط ص 30: «ان إيران تنازلت عن المطالبة بالبحرين، لكنها تمسكت بجزيرتي طنب الكبرى والصغرى، اضافة إلى جزيرة ابو موسى» (لاحظ حتى اسماء هذه الجزر، إنها عربية فكيف يمكن ان يدعي بفارسيتها). ويضيف: «ان السفير البريطاني اخبرني بان الطنبين امرهما بسيط، اما ابو موسى فهي أصعب. اخبرته بانها اراض ايرانية ولن يتنازل الشاه عنها. لكن السفير اعاد الكلام عن مشروع اتحاد الامارات ربما يسهل عملية ابو موسى كجزء من مشروع حماية الخليج، وان بريطانيا ستؤيد ذلك».

ويكمل في ص 34: «ان السفير البريطاني أخبره بان بريطانيا سوف تسلم الطنبين إلى إيران يوم الاثنين 17 نوفمبر 1969 وان شيخ رأس الخيمة قد اخبر بذلك لانها أقرب للساحل الإيراني. اما أبو موسى فتقع تحت خط الوسط (ميديان) اخبرته باننا نتمتع بقوة تجعلنا نتجاهل ذلك. أجابني بان هذا سوف يخلق مشكلات مع العرب. وكان ردي: لتذهب الأمور إلى الجحيم ماذا فعل العرب لنا؟ حسبهم ان يوقفوا ذلك الكلام الفارغ ويوافقوا على ان يدفعوا كلفة حماية الخليج ويتركوا الأمر لنا».

وأردف :- «بان العرب لن يقبلوا هذا التصرف وهم الان يطلقون اسم الخليج العربي عليه. اخبرته باننا مستعدون للاتفاق معهم على معاهدة دفاع لمدة 20 عاماً، وهي تشابه الحماية البريطانية».

ويواصل بقوله: «في 22 مايو 1970 تم تبليغ السفير البريطاني بمنع مشيخة الشارقة وام القوين الاقتراب من الجزر، لانها تابعة لايران. واذا استلزم الامر فالتدخل العسكري الايراني وارد، حتى اذا أدى إلى صدام مع بريطانيا».

كانت هذه المطالبات بالجزر بحجة الحماية من انتشار النفوذ السوفيتي والشيوعية، وليس على اساس الموقع الاستراتيجي، والذي لا يعني شيئاً، فالمسافات قصيرة بينها وبين الجزر الإيرانية فهي حجة واهية، لكن ردود الشارع والرأي العام الإيراني هما ما تصبو إليه ادارة الشاه لتعطي مبرراً للانفاق الهائل للتسليح وتغطية عدم نجاح مشروع المطالبة بالبحرين، وللتخويف من المطالبة بحق العرب في ما اطلق عليها خوزستان، وكان الإيرانيون اصلا قد اطلقوا عليها عربستان وتعني بلاد العرب كما بينا سابقاً، وهي فعلا كذلك لان سكانها من العرب بنسبة 99%.

المبحث الثامن:

لماذا إصرار ورثة فارس حالياً على عدم تسمية الخليج بالإسلامي والدولة تحمل الاسلام اسماً؟

في تاريخنا القريب تحضرني رواية لطيفة ذات مغزى عن سيف اشتهر باسم «الاجرب»، وبلغت شهرته في الحروب الآفاق البعيدة، واصبح مضرب المثل في المعارك والانتصارات حتى ان الفارس حامله التصق به المسمى ليصبح «راعي الاجرب»، وكان هذا «الراعي» هو الأمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود 1765 ـ 1834 الذي دوخ الدولة العثمانية، وابلى في حربه ضد ابراهيم باشا دفاعاً عن الدرعية 1818م. ونتيجة لذلك قدم وفد من عرب شمال الجزيرة ليروا بأم اعينهم هذا السلاح الفتاك، وزاروا الأمير في مجلسه، فلما سألهم عن غاية الزيارة ليكرم وفادتهم اخبروه عن شوقهم لرؤية هذا «الأجرب» المشهور فأمر الأمام أحد خدمه ليجلب «الاجرب» فراعهم ما شاهدوه، فاذا هو سيف عادي تعلوه الندب إلى حد التآكل ومن ذلك جاءت التسمية، وكان رد الفعل هو قولهم: هذا الاجرب! فأجابهم انكم سألتم عن السيف ولم تسألوا عن كف وذراع حامله وهو ما جعله ماضياً بتاراً، وهنا يكمن السر.

المغزى هنا، وعلى بساطته هو أنه من الصعب ان نكتب تاريخ إيران آلان، لأن عمدة التاريخ تنص على الوصول إلى الوثائق والمراجع التي لا يسمح بها لتزامن الأحداث والوجود الحالي على المسرح السياسي. ولكن الحقبة الحالية لا تختلف كثيراً عما سبقتها في تكرار اخطاء سالفتها، فهي لم تود إلى ازالة الفوارق.

ومبعث هذا التساؤل نابع من تعاظم الانكباب على التسليح وهو ما يعنينا ويشغلنا، وبالرجوع إلى استعراض ما حدث قبل ثلاثة عقود

TARTARIE
MER CASPIE
MEDIA
ARMENIE
ARABIE DESERTE
AYAMAN
Olim Deserta Thoama
ARABIE FELIX
MER ROUGE
DAHALE
TIE
CEAN IN

مرت وعلى الرغم من كل ذلك التسلح المخيف والمصاريف الهائلة، فان تلك المعدات والتجهيزات اصابت الشاه بفشل وكآبة ظلت تلازمه فترة ليست بالقصيرة نتيجة فساد الادارة وعدم الكفاءة وسوء التدريب، وعلى ذلك ينطبق بيت الشعر المشهور:

«يا باري القوس بريـاً ليس يحكمه
لا تظلم القوس أعطَ القوس باريها»

صداع ونكسة :

لنر ما يقصه علينا وزير بلاطه وكاتم اسراره وشاهد عيان لهذه الحادثة التي تبين حقيقة الأمر وليس برقعه.

يقول اسد الله علم (ص 252 ـ 253):

«الاحد 5 نوفمبر 1972، كان الليل عاصفاً، ولكن بعد استيقاظنا قمنا بزيارة بعض المنشآت لنصل إلى موعد استعراض القوات البحرية في العاشرة صباحاً ولسوء الأحوال الجوية كان القرار بالاستعاضة عن مشاهدة الاستعراض من على ظهر اليخت الملكي صعدنا على برج مراقبة. وكان من بين الحضور حفيد هيلاسيلاسي امبراطور الحبشة وقائد بحريتها. انطلق امامنا اسطول مكون من تسعة وعشرين قطعة حربية تتبعه مجموعة من زوارق الطوربيد، وهي تطلق مدافعها تحية، مارة امامنا، وحلق سرب من طائرات هليكوبتر وتبعها ست عشرة زحافة

بحرية (هوفراكرافت). بعد ذلك العرض أمر صاحب الجلالة الامبراطورية ان تقوم مدمرتان بمناورة رماية حية لاصابة الأهداف امامنا. وبالفعل تم انتخاب مدمرتين لتقوما بالمهمة. فأخطأت الأولى الهدف كلية، اما الثانية فلم تستطع حتى اطلاق الصواريخ المحملة من مكامنها. كانت تلك الحادثة نكسة ادت إلى هرج من الحضور، وحرج امام ضيفنا الاثيوبي. لقد ادى ذلك المنظر إلى اصابتي بصداع شديد، اردت للتخلص منه بكأس من الفودكا. وكان صاحب الجلالة يغلي حنقاً، ولكنه ابقى وجهاً من دون تعابير مثل لاعب البوكر. وصاحب وجبة الطعام وجوماً لا يفتح الشهية وهو أمر متوقع في جو من التوتر والقنوط والشعور بالفشل. وقد همست في اذن وزير المالية الذي كان يجلس بجانبي: «لو ان هذا التمرين كان ناجحاً لسمعت مقامات من قصائد المديح التي لا تنتهي نحو انضباط البحرية ومهارتها، وعن قابليتها في السيطرة ليس على الخليج وحسب، بل على المحيط الهندي بأجمعه. ولكن من الأحسن ان يكون الكلام اكثر امانة لو كان محصوراً كتحليل لهواة مراقبة أنواع الاسماك التي تعيش قرب سواحلنا».

وعلاوة على ذلك ورغم ان الادميرال الاثيوبي الذي لم يكن قد افاق من دهشته لامكانات بحريتنا كما شاهدها صباح هذا اليوم. ولكن صاحب الجلالة انهى الغداء بوصف للخطة الخمسية التي سوف ترفع مستوى الدخل من 500 دولار إلى ما بين 1000 و1200 دولار. بعدها استقللنا طائرة هليكوبتر التي حلقت فوق منصة شحن النفط، التي كانت ترسو حولها سبع وعشرون ناقلة نفط عملاقة بانتظار تحميلها

● الشاه محمد رضا بهلوي

بالقرب من اسطولنا البحري، بعدها عدنا إلى شيراز.

وعدت إلى احضان عشيقتي وكان العشاء فاخراً وليلة لا تنسى، وقمت بزيارة مقر صاحب الجلالة للتأكد من أنه يتمتع بسعادتي نفسها».

لم تصب المدافع أهدافها ولم ينته الموضوع عند ذلك بعد، فقد تكرر المشهد برمته بعد ستة أشهر بالتمام، وكان يوم أحد أيضاً وتاريخه 6 مايو 1973 (ص 290) ما زلنا برفقة وزير البلاط الذي كتب في أجندته: «حينما استيقظنا صباحا أبحرنا من جزيرة كيش إلى جزيرة أبوموسى لنشاهد بعض العمليات البحرية، ومنها سلسلة من التحركات السريعة للأسطول والرماية بالمدافع وإطلاق الصواريخ. فلم يصب أي من المدافع أهدافه، بالرغم من هياج صاحب الجلالة، الذي صب جام غضبه على قائد البحرية العام. حاولت بكل ما أستطيع تهدئة صاحب الجلالة، مذكرا اياه بأن الاسطول ما زالت الخبرة تنقصه ويحتاج إلى وقت أطول ليرفع من كفاءته، لكنه رفض وساطتي كلها. حاولت أن أوضح له ان صواريخ من طراز قاتلة البحر SEA KILLER ذات مدى 24 كيلومترا هي سلاح للتمرين فقط، وهي تختلف عن تلك المستعملة في القتال الحقيقي. اجابني: دع موضوع الصواريخ، انها اطلاقات قذائف المدافع التي اصابتني بالخيبة، انهم يرمون على هدف ثابت ولا يصيبونه، في حالة سلم ومن دون ضغوط، فما بالك بهدف متحرك في معمعة حرب؟! هل على أمثال هؤلاء أعتمد في تخطيط سياستي الخارجية وأغامر في مواجهة قوى أجنبية، وأنت الآن ترى أمام عينيك هذه الحفنة من «البهاليل» كما يبدون؟! ماذا أستطيع عمله معهم؟ لقد كان هذا الموقف قد قضى على فترة جميلة كنت خلالها في غاية المتعة، وقد تحولت إلى بؤس وكآبة. كان صاحب الجلالة غاضباً ولم يتناول العشاء معنا كالعادة، وهو في حالة من التوتر والعصبية. وقد أبلغني بإلغاء موعدنا غداً للزيارة المقررة إلى قاعدة بوشهر البحرية، معقبا: «أريد أن أعاقبهم

أولا، وسأكون مهموما، ولن أقدر كل ما سيقومون به من فعاليات أمامي. ولم نكمل الجولة، وعوضا عن ذلك رجعنا إلى شيراز». الإثنين 7 مايو: طلب مني صاحب الجلالة ان أخبر قائد الأسطول بعدم ارتياحي لما حدث. لقد قمت بترقية ضباط صغار لمستوى قيادي، متوقعا منهم ان يقوموا بالمهمة خير قيام، لكن أنظر ماذا أصبحت النتيجة؟! أخبرت جلالته بحالة قائد البحرية الأدميرال رامزي عطائي، الذي أصابه الانهيار عند سماعه أمركم بإلغاء زيارة قاعدة بوشهر. واخبرني انه لم يمض في منصبه الا ستة أشهر وانه يحتاج إلى مدة أطول ليتمكن من إدارة الأمور. كان خوف صاحب الجلالة أن الترقيات السريعة للضباط ستحدث ردود فعل غير مستحبة تجاه الانضباط».

ولم تمض فترة طويلة لتتضح الرؤية وتظهر الأمور على حقائقها، ونترك هذا الأمر إلى ما ذكرته زوجة السفير الأميركي في مذكراتها (ص 162):

«صدر أمر بسجن قائد البحرية الذي اختاره الشاه شخصياً، لتبوؤ هذا المنصب الرفيع بتهمة الابتزاز والفساد. وكان الشاه قد علم بهذه الصفقات المشبوهة من خلال جلسات تحقيق الكونغرس الأميركي، التي تورط فيها هذا القائد. لقد أخبرني زوجي أن حجم هذه المشاكل قد هزت مشاعر الشاه، ولم يعد يحاضر زواره من الأجانب على انحطاط الغرب وفساده وفق ما كان يقوم به سابقاً».

كـل شيء فـارسـي :

«هناك اعتقاد سائد عند الايرانيين بأنهم ارستقراطيو المنطقة ويرون بلادهم جزيرة محاطة ببشر لا يتقاسمون معهم أي ارث أو عوامل مشتركة، كاللغة والتقاليد والثقافة. فالعرب عندهم أكل الصباب اما الترك فيترجم هذا الشعور مثل فارسي يقول: «التركي بلا ايراني مثل القبعة من دون رأس». كما أن الحضارة العربية وامتدادها إلى الاندلس هي فارسية الاصل، سرق مواهبها العرب والاتراك، وان قصر الحمراء وتاج محل بناهما معماريون فرس، وأن «ألف ليلة وليلة» أو ما يطلق عليها في الغرب الليالي العربية هي في الحقيقة ليال فارسية، وهو ليس كلام العامة، بل انطباع الاكاديميين والخاصة أيضاً».

ليست تلك المقالة من تسطير عربي متأزم أو شخص كاره لايران وأهلها، بل هي ما سطرته زوجة أميركية لايراني هي آن سنكلير مهدوي في كتابها «المغامرة الفارسية» ص 15، - منشورات فيكتور جولانز - لندن 1953، والذي نشر على حلقات في مجلة نيويوركر في العام نفسه. ويظهر بوضوح ما ينطبق أيضاً على ما سبق انطباع سنتياهليمز زوجة السفير الأميركي في طهران 1974 – 1977، وهي من المحبين لايران والمهتمين بتاريخها وتراثها والناطقين بلغتها:

«ومما لا يخفف من حدة هذه المشكلة الميل الفارسي إلى عدم الاعتراف بالجهل مطلقاً»، (ص 138).

النزعــة العنصريــة :

إن العصور المختلفة تشهد ايقاعات متغيرة ومواتية للتاريخ حينما تسلط اضواء جديدة على جوانب منه، يجعل التعامل معها أكثر ايجابية وحيادية، وهو امر صحيح مدرك ولا يعيق فهم التاريخ وهضمه وتقريبه إلى الاعتدال وتشذيبه من المبالغة في موقف منهجي حضاري مقبول.

أمــا النزعــة العنصريــة المتطرفــة فهي مــا ظهــرت كمثــل في جريــدة «ديرشبيغل» الالمانية في مقابلة مع الشاه في 4 يناير 1974: «ينظر إلى الأمر أن العرب ساميون واليهود ساميون، أما نحن - الايرانيين - فإننا آريون والمانيا آريه»، ان خطاباً من هذا النوع يجعل الدم يتجمد في العروق، لأن تفسيره وبكل بساطة إلى القارئ الألماني، خاصة، كالتالي: «أيها الالمان لقد كانت لكم مشاكل عرقية مع اليهود وقمتم بما استطعتم تجاههم خلال الحرب العالمية الثانية، لكن تذكروا أن العرب مثلهم، فمشكلتكم لا تزال قائمة معهم، أما نحن فمثلكم عرقاً، فأعينونا ضد العرب لنحل مشاكلنا كما فعلتم مع اليهود».

تتقاطع مثل تلك الظواهر لترسيخ شعور العداء تحدوها شكوك ريبة ومغالطة تنجذب لوضع شديد التعقيد فاقد التدبير، تسيره عواطف وتنفخ في ناره مصالح باتت اكبر من امكانية ترويضها جعلت المنطق عاجزاً عن منعها والعقل عن فهمها والرأي عن التعامل معها.

العـــرب وإيـــران :

لنترك احلام وآمال الشاه جانباً، والتي اصبحت تاريخاً، ولنأت على ما يحدث بين ظهرانينا، مثل ما كشفه موضوع غلاف لمجلة «نيوزويك» الأميركية الصادرة في 2 يونيو 2009، وقد كتبه الصحافي الايراني «هومان مجد»، ولنتأمل هذا المقطع: «حينما اعترضت الدول العربية على عبارة الخليج الفارسي وطالبت بتغييرها في دورة التضامن الاسلامي في الميداليات والكتيبات والمزمع اقامتها في اكتوبر المقبل، اثارت هذه الملاحظة ردة فعل عنيفة في طهران (يسكن طهران الآن 20% من سكان إيران). فقد صرخ صديق لي تعلم في الغرب وأصبح تغريبياً بالكامل، وهو في الوقت نفسه ليس من مؤيدي الحكم الحالي قائلاً: «تبا لهم فليبق العرب في ديارهم من يأبه بهم؟ واستمر في غضبه الشديد واستنكاره للمسألة أياماً».

إلا تذكرك هذه العبارة التي نطق بها هذا الشاب المتفرنج بما قاله فردوسي عام 1010م أي قبل ألف عام بالتمام عدداً وكما؟! فلا عجب من قول «آن سنكلير مهدوي» في مصدر سابق (ص 18): «انهم ينفخون اطفالهم نقوداً إذا حفظوا بضعة أبيات من شاهنامة فردوسي».

امامنا واقع لا مفر منه، عند استعراضنا مقومات هذا المجتمع. فهناك طبقة متعلمة ميسورة تتجه إلى تعظيم الماضي للفترة ما قبل الاسلام. عندما كانت إيران امبراطورية تحكم اجزاء واسعة من المعمورة، وتعتمد في تفكيرها على الانتماء العنصري الآري ابتدأت ابان الحكم القاجاري المتأخر وتبناها رضا خان في تعزيز حكمه.

ولنشر تلك الافكار اصدرت جريدة «ايران شهر» في المانيا وكان يحررها «حسين قاسم زادة» وقد انتشرت في إيران لدى هذه الطبقة. وكانت ضد الاسلام والعرب وطبقة الملالي بتوجه عنصري تمييزي.

والثانية هي الطبقة التي تميل إلى الاسلام وتعتمد عليه في تطوير ثقافتها ولغتها.

اما الثالثة، فهي طبقة مسيسة تنهل الافكار الفلسفية الحديثة: وهي تشكل نسبة قليلة من السكان ولا تعطي اهتماما للسابقتين، برزت في نهاية القرن التاسع عشر وامتدت إلى القرن العشرين.

دولــة قوميــة :

وبالاضافة إلى ما قيل فان إيران بمجموعها وفي داخل ضميرها هي دولة قومية يغلب على مسارها السّياسي الفظاظة والتراث العنيف الذي يعتمد على القوة الخشنة في حل مشاكلها الداخلية والخارجية ولا ترتاح الا في بيئة تكثر فيها التعقيدات والملابسات، وإذا كانت الثورة الحالية تريد ان يكون الاسلام هو « السيد «، لكنها تحنُّ إلى مجد فارس ليكون هو «المسند» ونبع للفخر القومي، تصبو إليه، ومكان ترجع اليه في تطلعها وطموحها الامبرطوري. حيث لازالت ذاكرتها ترتبط في زمان هيمنة الاخمنيين والساسانيين (معنى ساسان هو القادة). ويذكر «مهرداد فرهمند» الصحافي الايراني في مقال نشر في جريدة «الحياة» في 13 نوفمبر الماضي: «ان إيرانيين كثراً سواء في الأوساط

الدينية او غيرها يعتبرون منحازين إلى ثقافتهم التي يعتقدون بانها سابقة على الحضارة الاسلامية (العربية)، وطوال أربعة عشر قرناً من اعتناق الاسلام حافظ الايرانيون على هويتهم وهم يفخرون بان سيطرة العرب عليهم طوال عدة قرون لم تتمكن من استئصال لغتهم وادابهم وتقاليدهم. وطوال تلك الحقبة بقي عيد النيروز الفارسي حائزاً على اهمية تفوق «عيدي الفطر والاضحى» الاسلاميين»، ويكمل: «إن ذلك يشمل اركان النظام الحاكم الآن، وقد نظمت الحكومة الايرانية قبل شهر احتفالا كبيراً لتكريم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية، وحضر الرئيس محمود أحمدي نجاد الحفل والقى خطاباً في تعظيم قورش كما القى اسفنديار رحيم مشائي أحد أقرب المسؤولين إلى الرئيس خطاباً قال فيه: «فَهمنا عن حقيقة إيران وحقيقة الاسلام هو المفكرة الايرانية وعلينا ان نخبر العالم بمفكرتنا هذه»، ولازالت الجمهورية (الاسلامية) تمنع أي كتاب او خريطة تحوي كلمة «الخليج العربي» وتمنع الاشتراك في أي مباريات او مهرجانات تحمل المسمى نفسه. فلا شك ان تصريحات مثل ما قالها «السيد حسن نصرالله» في 17 يونيو 2009: «اليوم في إيران لا يوجد شيء اسمه تفريس ولا حضارة فارسية، الهاشمي، الملكي، القرشي، التهامي، المضري، ومؤسس الجمهورية الاسلامية (يقصد اية الله الخميني) هو عربي ابن عربي».

فلا شك ان مثل هذا التصريح لا يستقيم مع ما سبق ولا يروق لمن يحتفل بذكرى « قورش وعيد نيروز» المجوسيين.

حينما جاءت نهاية نظام الشاه العلماني في يناير 1979 تحت أقدام ثورة دينية توقع الجميع أن بعث الاخمينية قد قضت عليه الدعوة الخمينية هكذا جاء التصور بعد ما سكتت مدافع الحرب العراقية - الايرانية اثر ثماني سنوات من دمار رهيب، ولكن لم يستمر الهدوء طويلا حتى علت تلك النغمات الشاهنشاهية ملتفعة هذه المرة بمسميات تمويهية، لكنها هي الانغام نفسها بأداء أصوات جديدة.

عـودة قـورش :

وابتدأت السجالات من جديد وضاع الكلام الذي أطلقه آية الله الخميني الذي يصف فيه «ايران قبل الاسلام بأرض جاهلية». وان « قورش» الذي قال عنه أحد منظري الثورة صادق خلخالي: «بأنه مغامر شاذ عبد النار بدلا من الله وان الايرانيين كانوا برابرة جهلة يعيشون في ظلام».

ما تقدم هو ما ذكره « أمير طاهري» بجريدة «الشرق الاوسط» في 17 سبتمبر 2010 بعنوان «امبراطور في زيارة» وهو ينقل عن مقال كتب في جريدة «طهران امروز» في أوائل الشهر نفسه بعنوان «انقضت اربعون عاما من الانتظار». وكان يعني عودة قورش بصورة اسطوانة حجرية قديمة تتضمن اعلانا عن اول حقوق للانسان والمساواة بين البشر، والتي وافق المتحف البريطاني على اعارتها إلى المتحف الإيراني القديم في طهران، لكي تعرض بصورة مؤقتة ويصف الازدحام الذي نقله أحد مسؤولي المتحف: «بأنه منقطع النظير». فقد تهافتت

اعـداد كبيرة من المواطنين واصطفت بطوابير طويلة تمثل كل الطيف الإيراني طلبـة مدارس مع معلميهم، عمال تركوا مصانعهم، اصحاب حرف ركنوا اعمالهم، حافلات نقل للركاب جلبوا من محافظات واماكن نائية، كل ذلك للترحيب ومشاهدة رمز ارتبط «بقورش» وكان المشرف على تنظيم هذا العرض «اسفنديار مشائي» المستشار للرئيس محمود احمدي نجاد. ومن بعض ما صرح به ما يناقض أقـوال الامـام الراحـل التي يؤكد فيها: «بأن الاسـلام دين وليس ثقافـة وللـدول الاسلاميـة ثقافتهـا الخاصـة».

وهذا يرجعنا إلى المربع الأول، فقد اتضح انه ليس من الممكن تجاوز معطيات مثل هذا التاريخ وتراكماته فهو ليس أمراً سهلاً، فمن يقرأ أدبيات تفاصيله يعترف بذلك وكأنه استسلام لفتواه واستنساخ لمرجعيته وهي كرحلة ضياع بين ماراثون البكائيات وانيميا المعرفة. تذكرنا بأواخر الاربعينات من القرن الماضي، حينما كانت الأمية في إيران ومستوى المعيشة تحت خط الفقر هي حصة 99% من الشعب وليس في الأمر مبالغة، فالمصادر تفيض بالتأكيد.

الملك مثل الشمس :

«حينها حاول الشاه نقل المرجعية الشيعية من النجف إلى قم وتعيين «آية الله بروجردي» ليكون المرجع الأعلى عام 1949، في فترة تقرب منها محمد رضا شاه إلى الملالي والاجتماع بهم في النهار ثم الخلود إلى احضان الشقراوات من الغواني الاوروبيات». هذا ما يقوله

«امير طاهري» وكان رئيساً لتحرير جريدة «كيهان» لسان حال الشاه وقريب من اذنه، ويضيف في ص102: «لقد اغرم بتربية الخيل وركوبها وأصبح من المطلعين في شؤونها وكان يعتقد ان حكم إيران مثل تربية الخيل».

أما زوجة السفير الأميركي في إيران فقد ذكرت ص177 عن معتقد الشاه:

«ولم يكن الشاه يذهب إلى مسجد أو يشارك شعبه في صلاة واكتفى بترميم المزارات!».

وتضيف: «لقد كان حكمه ملكياً مطلقاً تطلع إلى عهد امبرطوري غابر، مذكراً الايرانيين في إيران بمجدهم القديم واعتقاده بالمثل الفارسي الذي ترددده الاجيال منذ آلاف السنين: «ان الملك مثل الشمس فهي تضيء على الجميع ولا تحرم من ضوئها أحداً. فلا يجدر ان تصل إلى اناس وتنقطع عن آخرين».

لقد ورث عن أبيه ما يعادل من 60 مليون استرليني بعد عزله عام 1941. ولكنه لم يكن شمساً أو حتى عود كبريت، كما قال مثله الأعلى، فتلك الثروة تعادل بعملة اليوم مليار دولار، لكن خط الفقر – حينذاك - كانت تحته الأغلبية العظمى من الشعب الجائع. وفوق ذلك يقول مستشاره الثقافي سراج الدين شفى: «إن الإسلام لم يجلب إلا الخراب

لإيران». ونسي أن الشاه كان يرفض الدراسات والبحوث، باعتبارها مضيعة للوقت، ويعوضهما بالاستئناس بكشف الحظ والفأل من ديوان «حافظ الشيرازي»، كما يقول صفيه الحميم أسد الله علم. فأطلق عليه الخميني اسم «يزيد هذه الأيام».

لقد أظهرنا المثال الموروث وكشفنا آلية الانتقال وأسبابها، وبينها الثوابت والمتغيرات التي رافقتها، وركزنا على فترة المائة سنة الأخيرة، لكن كل ما وجدناه هو أن الفجوة ما فتئت تزداد وقد غاب عنها ان الصغير يكبر والأمور تتغير، وكل ما يبقى هو أن يعين الناس بعضهم على شياطينهم لا أن يعينوا شياطينهم عليهم.

أشيـاء متشابهـة :

لنـدع هـذه الحالـة الهستيريـة البركانيـة وفنتازيـا المشهـد السياسي الراهن جانباً، ونركز بوضوح على ما يجري في عالمنا من أشياء مشابهة. فهل منعت فرنسا بريطانيا، لأن في خرائطها مسمى القنال الانكليزي، بينما تسميه هي المانش؟ وهل ثار العرب على مسمى خوزستان وهي عربستان أي بلاد العرب، ومازالت إيران في خرائطها تسمي شط العرب «آروندرود» وهو ما كان فردوسي يطلقه على دجلة ومن حسن الحظ أنه لم يكن معنياً في شأن الخليج كما هم أحفاده. وإذا رفضت الجمهورية الإيرانية الإسلامية اقتراح مؤسسها بتسمية الخليج بالإسلامي، لأنه كان يعتقد: «أن فارس تمثل الظلام والجاهلية»، فلماذا يصر ورثته على فرض خليج فارس على الجميع؟ لقد غير رضا

شاه اسم فارس إلى إيران ولم ينبس إيراني ببنت شفة. فلماذا الإصرار والتمترس باسم فارس وخليجها وهو كما قلنا ومنذ البداية اسم اطلقه اليونانيون أصلاً؟!

إن التاريخ لا يبدأ من مكان محدد ولا يقف عند أمة واحدة أو فكر معين بل يأخذنا إلى «الاتيمولوجيا» وهو علم يعنى بأصل الكلمات وتاريخها، لكن مع تطوره في هذا المجال فما زالت أسماء مثل القارات والبحار ينتاب تسمياتها الغموض ولم تحل، والكثير منها أخذ مسمياته من أساطير يونانية، على سبيل المثال أخذت تسمية «أوروبا» من اسم أميرة فينيقية اختطفها «إله النور» زيوس بعد أن تنكر في هيئة نور أبيض، لتصبح ملكة اسطورية لجزيرة كريت وجاء الاسم من الاغريقية «ازوس» ومعناها عريض و«اوبس» وتعني وجهاً، لتصبح صاحبة الوجه العريض أو البلاد العريضة، ويقول علماء آخرون إن «أوروبا» جاءت من كلمة «اربو» أي «مغيب الشمس»، وكان ذلك قبل ألفين وخمسمائة سنة قبل الميلاد. وأن افريقيا كان اسمها القديم «ليبيا»، وأن «آسيا» هو اسم زوجة «بروموتيوس»، او انه من الاسماء الاكدية «ارسو» ومعناها الصعود إلى الشمس، أو من الفينيقية «اسا» أي الشرق.

أما الرومان فأطلقوا على تونس الحالية «تيرا أفرا» لتصبح افريقيا، ويعطى الاسم للقارة كلها. يعلق أبو التاريخ «هيرودوتس» على هذه المسميات بأنها تعود كلها إلى اناث. فإذا كان اسم افريقيا سابقاً هو «ليبيا» فهل معناه ان الأول يلغى ويبقى الثاني فقط.

وهناك موقع مقدس أتفقت عليه كل الأديان السماوية، ولكنها اختلفت بالتسمية، لتبلغ خمسا، فهي عند المسلمين أولى القبلتين وثالث الحرمين «بيت المقدس» أو «القدس» وأطلق عليها اليهود «اورشيلايم». اما المسيحيون فعندهم «جوروزليم»، وكان عرب الجاهلية وقبل الاسلام قد اسموها «ايلياء» أو «بيت الله».

ويقول الشاعر النابغة الذبياني فيها:

محلتهم بيت الإله ودينهم قويم

فلا يرجون غير العواقب

أما الفرزدق فقال عن أيلياء:

بيتان بيت الله نحن ولاته

وقصر بأعلى أيلياء مشرف

وأخذها عنهم الرومان فحرفوها إلى «إيليا كايبتولينا»، لكننا لم نسمع عن اجبار طرف لآخر على تسمية ما وترك باب الخيار مشرعاً، على الرغم من كل الخلافات الأخرى، ولا ندري ماذا يميز الايرانيين عن بقية خلق الله؟

ليطلق الفرس على الخليج اسم الفارسي، إذا أحبوا، لكن ليس لهم الحق في منع العرب من أن يعرفوه بالخليج العربي إذا ما أرادوا، وهم لا يحتاجون إلى جواز واستئذان أحد في آرائهم.

أم أن يكون في الأكمة مشروع لافتراس أو تفريس الخليج برمته أرضاً وبشراً وتاريخاً، كلما برزت في إيران حركة تفكك اثني سياسي جغرافي، وأرادت إثارة الزوابع لطمسها، معتمدة في ذلك على سياسة التصعيد والتهديد لشعور العارفين بالأمور أن هذا لن يمنع التغيير فهو آت حتماً طال الأمد أو قصر!

وليعي المؤلبون مقولة سعدي الشيرازي:-

مهما كانت لك قوة كالفيل وزئير كالأسد فتذكر ان السلم أحسن من إثارة الحرب.

واصلها بالفارسية كما في كتاب «بوستان سعدي» باب 1 ص 248 وهي:

اگـر پيـل زوري وگـر شـيـر چـنـگ

به نزديك من: صلـح بهتـر كـه جـنـگ

* * *

المحتويـــات

المبحث الأول :

مسـميـات الخليـج 7

المبحث الثاني :

العـــرب والخليـــج 23

المبحث الثالث :

شاهنامة نتاج تفكير مأزوم ومفرط في الكراهية 39

المبحث الرابع :

رضا شاه ألغى اسم فارس وأبدله بإيران 61

المبحث الخامس :

تسمية الخليج العربي بدأت في الخمسينات 77

المبحث السادس :

خضوع الفرس لرعاة الابل 93

المبحث السابع :

محمد رضا بهلوي: الخليج حبل وريد إيران 111

المبحث الثامن :

لماذا إصرار ورثة فارس حاليا على عدم تسمية الخليج إسلامي 123